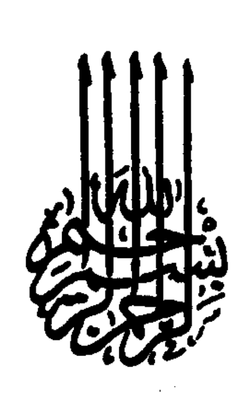
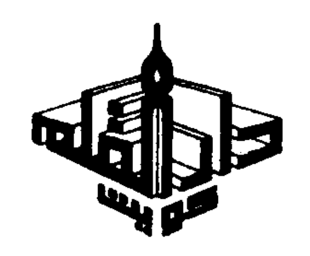
مقدمات فى مشاريع
البعث الحضارى



مقدمات
فى
مشاريع البعث الحضارى

الدكتور
سيد دسوقى حسن



الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م



دار القلم للنشر والتوزيع
ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت
شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف: ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيعكو

مقدمة المؤلف

نفر الفقه الحضارى

تتكون خريطة الأعمال الإصلاحية فى الأمة من طيف متمايز الخطوط من التوجهات المختلفة ، فهناك العمل التربوى ، وهناك العمل التنموى ، وهناك العمل السياسى ، ومن وراء ذلك كله يقف العمل الحضارى الذى يصبح ذا أهمية خاصة فى مثل الظروف التى تعيشها أمتنا ، حيث تحاول الإنبعاث من واقع مثقل بتراث متراكم عبر القرون بينما يحيط بها واقع عالمى مبهر يضغط عليها ضغطاً متصلاً لا يسمح لها بالمعاصرة فى ظل ظروف هادئة تعيش على الانتقاء الصالح ، وإنما يتمثل هذا الواقع العالمى فى أشكال استعمارية تزين وُفودَها باسم المعاصرة وتجند فى سبيل ذلك فرقاً من المرتزقة وتبسط لهم الرزق ووسائل الإعلام فينطلقون كالكلاب الهائجة ينهشون فى تراث الأمة وفى مقومات أصالتها ..

وأنت تعرفهم دون جهد ... فيكفيك أن تقلب فى صفحات هذا الكم من المجلات التى تصدر فى عالمنا العربى فاخرة الطباعة لترى كيف يتجمع هؤلاء وتسأل من جمعهم ، ولا يغرنك ما تسمت به هذه المجلات من أسماء فكرية ، ستجد أنهم يزيفون التاريخ ويحملون على القيم الثابتة حملة ضارية ويهاجمون الشريعة وكأنها عدوهم الأول ... وهم يكرهون المؤمنين بالله ورسوله ..

وتعجب من شدة بغضهم لمن يسلم وجهه لله ويؤمن بدين الإسلام من الغربيين ... ويقارن أحدهم بين جارد رى الفيلسوف العالمى الذى أسلم وجهه لله وبين القائد الفرنسى مينو الذى أسلم وتزوج بغادة رشيد ... هكذا بوقاحة استعمارية منقطعة النظير ..

ومن هنا فإنه يتعين على علماء هذه الأمة أن تنفر طائفة منهم ليتفرغوا لعملية الفقه الحضارى كجزء جوهرى من عمليات الفقه الدينى ... لينيروا للأمة دربها

فلا يختلط عليها الوفود باسم المعاصرة ... ولنسمى هذه المجموعة « نفر الفقه الحضارى » ومختصرها « نفح » .

وهؤلاء النفر يجتمعون فيما بينهم بالعمل الفكرى ويتعاونون به من غير تنظيمات معقدة .

وهذا الكتاب « المقدمات فى مشاريع البعث الحضارى » هو أحد الكتب التى تقدم بين يدى هذا التيار الفكرى الحضارى وتبشر به ، ونرجو الله أن يعين المخلصين من شباب هذه الأمة حتى يتتابع جهدهم فى هذا الميدان ، فيمضون فى دروبهم إلى بناء حضارتنا المرتقبة ...

لا يلتفت منهم أحد إلى الأصوات الضالة المضلة

... مدركين ضخامة المهمة

... وموقنين بنصر الله

و « قل هذه سبيلى أدعواْ إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين »

صدق الله العظيم

سيد دسوقى حسن

تقديم

بقلم الأستاذ طارق البشرى

هذا الكتاب قرأته مرتين ، ولم يفقد جدته فى المرة الثانية ، وهذا يشير إلى أن حصيلة الكتاب لا تنقضى بقراءة واحدة . والكتب عندى ثلاثة أنواع ، نوع يزيد معرفة القارىء بالعديد من الوقائع والحقائق ، فى أى مجالات المعرفة والأنشطة الإنسانية ، فيخرج القارىء منه بمعلومات أوفى مما دخله بها . ونوع ثان يخرج منه القارىء وهو أعمق فهماً لواحد أو أكثر من فروع العلم أو من مجالات الظواهر الطبيعية أو الإنسانية ، هو نوع من الكتب يتوجه فى اهتمامه إلى كشف ما عساه كان خافياً من علاقات بين الظواهر المرئية أو المحسوسة ، وذلك فى واحد من فروع المعرفة أو تخصصاتها .

والنوع الثالث ، أكاد أقول أن القارىء يخرج منه وقد صار أكثر ذكاءاً ، فهو لا يهتم بحجم المعلومات الجديدة التى يضيفها إلى قارئه ، ولا يوجه همه الأساسى إلى كشف العلائق بين الظواهر فى واحد من مجالات العلم والمعرفة ، ولكنه ينفذ إلى نسيج عقل القارىء ليعيد صياغته وترتيب جزئياته على غير المنوال الذى كان عليه ، ويوجهه إلى غير الوجهة التى اعتادها من قبل . أى يعدل به عن مألوف ما كانت تجرى به توجهاته الفكرية .

ويبدو لى أن هذا الكتاب الذى يقدمه الدكتور سيد دسوقى عن « المقدمات فى مشاريع البعث الحضارى » ، هو أدخل فى هذا النوع الثالث . فهو كتاب من شأنه أن يطبع قارئه برؤيته ويريه الظواهر من وجهته ، وهو بذلك يجاوز الهدفين التلقينى والإقناعى . والقارىء الطُلَعَة يقرأه فلا يشعر أن الكتاب كشف له عن وقائع لم يكن يعرفها أو أحداث كان يجهلها ، وإنما يشعر أنه قد أُعيد تصنيف الأشياء والظواهر وترتيب أهميتها على نهج جديد ، بحيث تكون تعدلت لديه الأوزان النسبية بين الظواهر والأهداف ، وأنه قد صار أحدُ بصراً وأدق ميزاناً

بالعيش فى هذا الزمن ، أو مدى تخلفهم . فهى فكرة جامعة وهى فى الوقت ذاته تقيم مقياساً من شأنه أن يجعل المجتمعات الغربية فى قمة السلم ، ويجعل الشعوب الأخرى على درجات من السلم تقترب من القمة أو تبعد حسب اقترابها من تقليد ظواهر الحضارة الغربية أو ابتعادها عنها .

وأقدر على التمييز بين النافع والضار ، وذلك لسبب جوهرى أساسى ، هو أن القارىء يكون قد صار أعرف بنفسه وبقومه مما كان ، وأفهم لظروفه وأحواله مما كان .

والكتاب من بدايته إلى نهايته يعتنى أكثر ما يعتنى بالوجهة التربوية المعرفية ، مهتم لا بصياغة النظم والعلاقات بقدر اهتمامه بصياغة الإنسان وتعليمه ، من

والحضارة الأوروبية الغربية تسود بتقدمها المادى وبقهرها للأمم والشعوب ، وهى سوغ استمرار سيادتها بتصفية الحضارات الأخرى ، وإلحاقها بها ، ويجرى ذلك باسم المعاصرة . وهى إذ تدعو « للعصرية » إنما تدعو لها بشرط توحدها معها والتصاقها بها ، وأن تستوعب عموميات العصر فى خصائصها الذاتية . وبذلك تبدو الحضارة الغربية بوصفها الصورة المثالية « لحضارة العصر » على سائر بقاع الأرض . وبهذا فهى جادة فى استيعاب حاضر العالم كله . والحضارة الغربية إذ تستلب « العصر » بهذه الطريقة ، إنما تكون قد احتكرت ميزان التقدير ومقاييس التقدم . وقد صرنا نقيس مدى تقدمنا بمدى قربنا منها أو بعدنا عنها فى ظواهرها جميعاً . وبهذا تكون قد استوعبت صورتنا عن مستقبلنا أيضاً ، لقد صار الغرب هو مستقبلنا .

والحضارة الغربية لا تكتفى باستيعاب الصورة المثلى لحاضرنا ومستقبلنا ، ولا تقنع بأن تترك لنا الماضى . إنما هى ترتد إليه تصوغه وفق مقاييسها ، وتنزع من حضاراتنا الماضية معايير الشرعية والاحتكام المستمدة من هذه الحضارات ، ثم تُخضع تاريخنا لمعايير مستمدة من التاريخ الأوروبى . فهى مثلاً تحاكم الإسلام فى تاريخنا بما حوكمت به المسيحية فى تاريخها ، وتلصق بالعقيدة الإسلامية ما هى منه براء مما علق بعقائد المسيحيين فى أوروبا فى القرون الوسطى . وعبثاً نحاول أن نوضح الفروق فى هذه الأمور ، عبثاً نحاول لأننا لا نواجه أخطاء غير مقصودة . وإنما نواجه سعياً مدبراً يتغيأ نتائج وآثاراً محددة من سعيه تفريقنا عن ماضينا (حسب التعبير الذى استخدمه الأستاذ محمود شاكر) . ثم هى تجعل العصر اليونانى الرومانى كما لو كان نقطة البداية فى تاريخ الفكر العالمى ، رغم أنه سبقته حضارات وحضارات ، ورسالات أديان ورسالات ، قفزت بالفكر فى البشر قفزات واسعة ، ثم هى تجعل القرون الوسطى عصور الظلام فى العالم لا فى أوروبا وحدها ، رغم أنها كانت أبهى عصور النور عندنا ، يكفى أنها ضمت الوعاء الزمنى للرسالة المحمدية تنزيلاً وانتشاراً .

وبهذا جميعه تكاملت الحلقات التى تقيم الترادف بين الوفود الأجنبى إلينا وبين « المعاصرة » ، وبالمقابل ترادف الموروث مع نقيض « المعاصرة » وهو البالى

الأساسية ، يكون القارىء قد عرف ذاتيته التى تمكنه من متابعة مادة الكتاب وأفكاره التالية ، من حيث قيمة العلوم الاجتماعية وكيفية انتشار الأفكار من نسق حضارى إلى غيره ، وكيفية التفريغ وإعادة الشحن الفكريين ، والاضطراب الذى تبثه أجهزة الإعلام ، ثم قضايا التعليم والحرف والصناعات وقضايا التقليد الصناعى والترجمة ونقل التقنيات وغير ذلك .

أنا لست بسبيل أن أعرض على القارىء موضوعات كتاب هو بين يديه ، ولكن غاية ما أريد قوله ، هو أن هذا الكتاب الذى يجد مكانه المطمئن بين الجهود الخاصة بالبعث الحضارى لأمتنا ، فإنه وغيره من الجهود التى تبذل فى هذا المضمار ، إنما تستند تصوراتها وفروضها إلى عدد من الأسس ، ومن أهم هذه الأسس فى ظنى ما يلى :

أولاً ، يتعين أن نكون على حذر من الخلط الذى يحدث بالنسبة لمسألة « المعاصرة » . إن سادة العالم الآن يريدون أن يوحدوا العالم كله تحت قيادتهم ويخضعوه لهيمنتهم . وأى حاكم يحتاج دائماً إلى صيغة ما تجمع بينه وبين محكوميه . وإذا كانت القوة والجبروت كافيتين لغرض السيطرة ، فإنهما غير كافيتين وحدهما لاستدامة هذه السيطرة ، إنما يحتاجان إلى « فكرة » ، وينبغى أن يتوافر فى هذه الفكرة شرطان ، أولهما أن تكون جامعة للحاكم والمحكوم ، وثانيهما أن تُمكن من إجراء تصنيف داخلى بين الطرفين يسوغ حاكمية الحاكم ومحكومية المحكوم ، أو تسوغ قيادة الأول وتابعية الثانى . وفكرة « المعاصرة » التى تُطرح حالياً ، والتى جازت إلى عقول الكثير من مثقفينا المغتربين وتسربت إلى العامة وتزكيها أدوات الإعلام دائماً ، هذه الفكرة تقوم بالوظيفتين المطلوبتين .

إن فكرة المعاصرة تقوم على أن للعصر الحالى خصائص واحدة تربط أهل الأرض جميعاً . ولهذه الخصائص تقاس عصرية الجماعات المختلفة ومدى جدارتهم بالعيش فى هذا الزمن ، أو مدى تخلفهم . فهى فكرة جامعة وهى فى الوقت ذاته تقيم مقياساً من شأنه أن يجعل المجتمعات الغربية فى قمة السلم ، ويجعل الشعوب الأخرى على درجات من السلم تقترب من القمة أو تبعد حسب اقترابها من تقليد ظواهر الحضارة الغربية أو ابتعادها عنها .

والحضارة الأوروبية الغربية تسود بتقدمها المادى وبقهرها للأمم والشعوب ، وهى سوغ استمرار سيادتها بتصفية الحضارات الأخرى ، وإلحاقها بها ، ويجرى ذلك باسم المعاصرة . وهى إذ تدعو « للعصرية » إنما تدعو لها بشرط توحدها معها والتصاقها بها ، وأن تستوعب عموميات العصر فى خصائصها الذاتية . وبذلك تبدو الحضارة الغربية بوصفها الصورة المثالية « لحضارة العصر » على سائر بقاع الأرض . وبهذا فهى جادة فى استيعاب حاضر العالم كله . والحضارة الغربية إذ تستلب « العصر » بهذه الطريقة ، إنما تكون قد احتكرت ميزان التقدير ومقاييس التقدم . وقد صرنا نقيس مدى تقدمنا بمدى قربنا منها أو بعدنا عنها فى ظواهرها جميعاً . وبهذا تكون قد استوعبت صورتنا عن مستقبلنا أيضاً ، لقد صار الغرب هو مستقبلنا .

والحضارة الغربية لا تكتفى باستيعاب الصورة المثلى لحاضرنا ومستقبلنا ، ولا تقنع بأن تترك لنا الماضى . إنما هى ترتد إليه تصوغه وفق مقاييسها ، وتنزع من حضاراتنا الماضية معايير الشرعية والاحتكام المستمدة من هذه الحضارات ، ثم تُخضع تاريخنا لمعايير مستمدة من التاريخ الأوروبى . فهى مثلاً تحاكم الإسلام فى تاريخنا بما حوكمت به المسيحية فى تاريخها ، وتلصق بالعقيدة الإسلامية ما هى منه براء مما علق بعقائد المسيحيين فى أوروبا فى القرون الوسطى . وعبثاً نحاول أن نوضح الفروق فى هذه الأمور ، عبثاً نحاول لأننا لا نواجه أخطاء غير مقصودة . وإنما نواجه سعياً مدبراً يتغيأ نتائج وآثاراً محددة من سعيه تفريقنا عن ماضينا (حسب التعبير الذى استخدمه الأستاذ محمود شاكر) . ثم هى تجعل العصر اليونانى الرومانى كما لو كان نقطة البداية فى تاريخ الفكر العالمى ، رغم أنه سبقته حضارات وحضارات ، ورسالات أديان ورسالات ، قفزت بالفكر فى البشر قفزات واسعة ، ثم هى تجعل القرون الوسطى عصور الظلام فى العالم لا فى أوروبا وحدها ، رغم أنها كانت أبهى عصور النور عندنا ، يكفى أنها ضمت الوعاء الزمنى للرسالة المحمدية تنزيلاً وانتشاراً .

وبهذا جميعه تكاملت الحلقات التى تقيم الترادف بين الوفود الأجنبى إلينا وبين « المعاصرة » ، وبالمقابل ترادف الموروث مع نقيض « المعاصرة » وهو البالى

القديم . وبهذا الاستيعاب لحاضرنا ومستقبلنا وماضينا يجرى تفريغ ذاتنا ، ويجرى اقتحام الوافد لنا ليسد علينا كل السبل .

ومع التسليم بأن ثمة وجوهاً عديدة للاستفادة مما أسفرت عنه الحضارة الغربية ، وخاصة فى العلوم الطبيعية والتقنيات والعديد من النماذج التنظيمية فى مجال تشكيل المؤسسات الجمعية فى الإنتاج والإدارة والشئون العسكرية ونماذج العمل السياسى ، مع التسليم بذلك فإنه يظل علينا أن نبذل الجهد الكبير لتحرير فكرة المعاصرة ، وليكون اختيارنا فيما ننقل متصلاً بإدراكنا لهويتنا وفهمنا لظروف « عصرنا » الخاصة ، فلا يفرض علينا شيء ، لا بالإقحام ولا استناداً إلى محض « المعاصرة » مع الغرب ، تسليماً بحتاً لما يعتبرونه « مقتضى » المعاصرة لتلازمه مع أوضاع الغرب .

وفى هذا السياق نلحظ أن الكثير مما أخذناه من الغرب باسم « المعاصرة » وضروراتها ، قد أدى لدينا من الآثار عكس ما أدى لدى الغربيين ، وتجاربنا التاريخية خلال المائة عام الأخيرة شاهد على ذلك . هناك فروق أساسية بين البيئة المنقول منها والبيئة المنقول إليها . إن كل ما بناه الغرب فى « العصر الحديث » من نظم وقيم وأفكار ، إنما بناه فى ظروف كان آمنا فيها على نفسه أمناً تاماً من أية مخاطر تتهدده من خارجه ، فصرف جهده لتنظيم أوضاعه الداخلية وإيجاد صيغ الصراع والتحالف بين قواه الداخلية .

أما نحن ، فإن « العصر الحديث » لدينا يجعلنا نختار من النظم والقيم والأفكار فى ظروف جد مغايرة ، نحن نبنى نظمنا وننظم أفكارنا ونقرر قيمنا ونحن تحت خط النار ، ونحن فى عصر « الاستعمار ومقاومته » وذلك فى كل صعيد سياسى واقتصادى واجتماعى وفكرى . وأن كل ما نبنى ونهدم إنما ينبعث مباشرة من واقع أننا مجتمعات مغزوة مقتحمة ، تكافح وتدفع الغوائل عن نفسها .

فالمعاصرة إذاً ليست مجرد تواكب زمنى ، وليست مجرد اتفاق فى عدد السنين ، ولكنها تماثل فى الظروف والأوضاع . وهذا بالذات هو الأمر غير القائم بيننا وبين أصحاب الحضارة الغربية . وهو ما يحتاج إلى تحرير .

ثانياً ، يتعين الكشف عن ظاهرة « الازدواج » التى تعانى منها مجتمعاتنا أيما معاناة ، والتى أوجدت انفصاماً فى المجتمع هدَّ من فاعليته وفتَّ فى قوى التماسك فيه . إن أبسط ما واجهتنا به هذه الازدواجية أنها أوجدت صدعاً وظلت تعمقه داخل المجتمع ، فى جميع مؤسساته السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وفى أنساقه الفكرية وقيمه وعاداته ونماذج العيش فيه .

إن أية قوة يتحول حسابها إلى صفر ، إذا شُقَّت نصفين ووضع بين مقداريهما علامة الطرح لا علامة الجمع . وبمعنى آخر تنمحى أية قوة إذا جُزئت وأُثير الصراع بين بعضها البعض ، فينطرح بعضها من بعض بقدر ما تكون القوتان المتصارعتان متكافئتين ، وفى حدود التكافؤ بين الأجزاء المتصارعة .

والحاصل أنه على مدى القرن الأخير ، لم يعمق الصدع فقط بين الموروث والوافد من المؤسسات والنظم والأفكار والقيم ، إنما كانت كفتا الميزان تتجهان باطراد نحو التعادل ، إذا كان الموروث يقل حجمه ويضيق نطاقه ، وكان الوافد يزداد حجماً ويتسع نطاقاً ، وقد قاما معاً قيام التعارض والتصارع ، وبهذا اتجهت الحصيلة العامة للقوى الاجتماعية نحو التناقص والاضمحلال ، فمع اتجاه المتنافيين إلى التساوى اتجهت الحصيلة إلى نقطة الصفر . وهذا يتضح بشكل كبير بمدى قدرتنا على مقاومة المستعمرين والغزاة ومدى قدرتنا على النهوض بالناس ، فرغم ارتفاع الصوت والجلبة تزداد قوانا فى هذين المجالين ضموراً وتهافتاً .

ظاهرة الازدواج هذه ، تناولها الدكتور سيد دسوقى فى موضوع التعليم ، وهو من أخطر المجالات التى مُورس فيها الازدواج . مُورس أيام محمد على بشكل يبدو لى غير واع بالآثار السلبية التى تترتب عليه ، ولكنه مع نهايات القرن التاسع عشر وفى عهد الاحتلال البريطانى ، فالمتصور أن سياسة دانلوب فى التربية والتعليم كانت متجهة إلى دعم تلك الآثار السلبية لنوعى التعليم الذين تأكد وجودهما وعظم الانفصام بينهما فى ذلك الوقت .

على أن ظاهرة الازدواج لم تقتصر على التعليم رغم أهمية هذا المجال وضخامة ما ترتب على هذه الظاهرة فيه من آثار . إنما امتدت إلى مجالات النشاط والحركة

السياسية والاجتماعية كلها ، على خلاف فى زمن البدء وفى سرعة الإيقاع بين مجال ومجال . وأن أضخم الميادين الأخرى التى عانت من هذه الظاهرة ، هى ميدان النظام القانونى ، إذ بدأ تسرب النظم القانونية الوافدة ببطىء وبالتدريج منذ ١٨٤٠ باستعارة بعض أحكام القانون التجارى الفرنسى فى الدولة العثمانية ومصر لتطبق فى مجالس للتجار أنشئت وقتها ، وكان هذا الوقت هو وقت استغلت فيه الدول الأوروبية الصراع السياسى العسكرى بين محمد على بمصر والسلطان محمود الثانى باستانبول لتضعف المتصارعين وتسيطر عليهما معاً وتفرض سياسة الباب المفتوح على المنطقة كلها . ثم بدأ التوغل قليلاً قليلا حتى أنشئت فى مصر المحاكم المختلفة فى ١٨٧٥ ، ثم جرى الاقتحام الكبير فى ١٨٨٢ عندما فرضت على مصر ست مجموعات من القوانين أنشئت كلها نسخاً مترجمة مختصرة عن التقنينات الفرنسية وأنشئت لها محاكم جديدة . وغطى النظام الوافد مجالات المعاملات المدنية والتجارية والأحكام الجنائية ونظم المحاكم وإجراءات التقاضى والتحقيق .

من ذلك الوقت حدث الانفصام العظيم فى نفس الأمة وعقليتها ، بين نظم للمعاملات تستمد أسس شرعيتها من مبادىء وقيم آخذة عن المجتمعات الأوروبية ، وبين نسق للأخلاق والقيم يستمد أسس شرعيته من الشريعة الإسلامية . وبهذا الانفصام انصدعت تلك الوشيجة التي يلزم قيامها بين ما يعتبر المجتمع صحيحاً وما يعتبره حلالاً ، وبين ما يعتبره باطلاً أو محرَّماً وبين ما يعتبره حراماً ، وانفتقت الآصرة بين الواجب وبين المفروض والمندوب ، وبين الخطأ وبين المشين . وعلى الجملة تمزقت العلائق بين نظام القانون ونظام الأخلاق فى المجتمع ، وصار كل من النظامين يضعف الآخر ويضعف به ، بدلاً من أن يقوى كل صاحبه ويتأيد به .

ونحن نلمح ظاهرة الازدواج أيضاً ، فى كل من مجالات النشاط الإنسانى والاجتماعى ، فمثلاً فى نظام الحكم تقوم السلطة الشخصية للحاكم الفرد جنباً إلى جنب السلطة الشعبية (أو الموصوفة بهذه الصفة) للمنظمات النيابية المنتخبة . وفى نظام الإدارة تقوم البيروقراطية الحديثة بالتخصص وتقسيم العمل وانفصال أدوات العمل ومقره عن ملكية العامل والموظف ، يقوم كل ذلك جنباً إلى جنب

مع نظم العمد والمشايخ والخفراء بما ينتمى إلى النظام البيروقراطى التقليدى القائم على الروابط الشخصية والأسرية والتوارث ..

ونظام الإنتاج الحرفى القديم قامت بجواره المصانع الحديثة المستوردة ، قامت على غير انبثاق من النظام القديم ولا عن تطور به .. وعلاقات الإنتاج العائلية قامت بجوارها نظم العمل الجديدة ونظم شركات المساهمة والتوصية وغيرها ، وقام كل ذلك على غير اتصال ولا انبثاق وتطور ، إذ وفد الجديد مقتحماً البيئة الاجتماعية ضارباً الأنماط القائمة . وجرى شبه ذلك فى الأحياء السكنية وطرز المنازل والملابس وعادات العيش . وفد الجديد غزواً على غير انبثاق ولا تطور أفضت إليه حاجة المجتمع من داخله ولا جرى بإكبات حركته الذاتية . وأدى كل ذلك إلى ما نشاهد اليوم من فوضى وضياع وفقدان للتوجه ولا أدرية سياسية واجتماعية وثقافية ، ووهن تصير به الجبال ذات الأوتاد كالعهن المنفوش .

ثالثاً ، ويتعين ملاحظة ما تتسم به العلوم الاجتماعية من نسبية إذ يستند السائد منها لدينا الآن إلى تقريرات ومسلمات بعضه وليد الحضارة الأوروبية وتجارب التاريخ الأوروبى فى الأساس . فهى لا تتضمن قوانين بالمعنى الذى تدعيه وتحاول استعارة مصداقيته من مصداقية العلوم الطبيعية . وغالب هذه التقريرات تعتبر مذاهب أو مدارس فكرية وتتضمن تحيزات فكرية كامنة فيما نذيعه من مسلمات وأسس ، سواء فى الفكر السياسى والاقتصادى أو فى المذاهب الاجتماعية بشكل عام ، أو فى محاولة صياغة تاريخ العالم وفق مراحل التاريخ الغربى وحده ، بما يوحى أن كل خلاف لدينا (فى الحاضر أو فى الماضى) مع التجارب الغربية يضع مجتمعاتنا الماضية والحاضرة فى إطار الشذوذ عن القاعدة والانحراف عن الأصل والنسق الثابت المستمد من الأوضاع الغربية .

هذه الصورة تجعلنا دائماً فى موقع التابع فى كل شىء ، فالخلاف لا يكون إلا بين نقص وكمال ، ولدينا النقص ولديهم الكمال ، وهذا الوضع يفرض علينا تبعية أبدية لا فكاك منها ، إلا أن نطرح هذا النموذج المضروب علينا وأن نسعى لبناء وتركيب نموذج للتطور ، لا يستبعد تجارب الغرب ، ولكنه لا يستند إليها وحدها ولا يُستوعب فى إطارها ، ونموذج تبتدى فيه ذاتنا وتاريخنا وتجاربنا وأوضاعنا .

وإن كتاب الدكتور سيد دسوقى خطوة هامة فى هذا السعى ، ألهمه الله القدرة والثبات والدأب وأنا أشكر الصديق الكريم حسن ضيافته لى فى كتابه بهذه الكلمة . وأرجو ألا أكون أطلت وألا أكون حجبت القارىء عن كتابه وأطلت المكث أكثر مما كان يجوز له . أستغفر القارىء وأشكر الكاتب وأسأل الله له جهداً نافعاً موصولاً فى خدمة دينه وأمته بإذن الله .

طارق البشرى

الفصل الأول

ديناميكية انتشار الأفكار وعوالم الغيب
نظريات فى الإعلام الفكرى

مقدمـة :

دعتنى الحكومة الليبية فى صيف ١٩٧٣ للمشاركة فى مؤتمر عالمى فى طرابلس حول النظرية الثالثة . وهناك التقيت بأخى الدكتور الرشيد بن عيسى الذى جاء من الجزائر للمشاركة فى نفس المؤتمر . ووجدت نفسى أنا والرشيد فى لجنة التنظير . ويبدو أن الفكرة كانت أن يستعرض أهل الفكر من المؤمنين بهذه النظرية أفكارهم على هذا الجمع الحاشد من المدعوين لعلهم يؤمنون بها ويعودون إلى بلادهم مبشرين ومنذرين .

ولكن سير الأمور فى المؤتمر أشار إلى أن هذه الغاية ليست قريبة المنال بل أن هناك شبه رفض لمحتواها الفكرى عند كثير من المدعوين . وشعرت بالقلق عند المسئولين الليبيين وتطور هذا القلق إلى غضب أحياناً . وحاولت أنا والرشيد أن ننبه أهل النظرية إلى حقائق بسيطة فى عملية انتشار الأفكار . فالأفكار لا يمكن تعبئتها فى أفئدة الرجال بالقوة والقهر وإنما تتسرب إلى النفوس بطرائق مختلفة وفق قوانين اجتماعية حاكمة .

وفى إحدى اجتماعات لجنة التنظير تحدث أخى الرشيد حاملا معه رسالة من أستاذنا العظيم مالك بن نبى رحمه الله فقال إننا فى العالم العربى ورغم المعاناة الاجتماعية لم نسمع عن النظرية الماركسية على مستوى الجمهور قبل أن تتمثل هذه النظرية فى مجتمع عصرى متقدم ، فلما تمثلت فى هذا المجتمع افتتن بها كثيرون وانتشر هذا الافتتان من مجال إلى مجال ، من السياسة إلى الفن إلى الاقتصاد وأصبح لها فى بلادنا مؤمنون يسجنون فى سبيلها ويموتون من أجلها .

ومن ثم فعلى الثورة الليبية أن تعمل من خلال هذه النظرية الثالثة على إبداع مجتمع عصرى متقدم ويوم يتحقق هذا الهدف لا تحتاج ليبيا أن تعقد كل يوم مؤتمراً تقدم فيه هذه النظرية وتحاول جاهدة تعبئتها فى نفوس الرجال كأنها مياه غازية وكأن أفئدة الرجال زجاجات فارغة .

رحم الله أستاذنا مالك .. فكل ما قاله حق مبين

ونستطرد فنضيف أن التهيؤ لتلقى الأفكار لابد أن ينشأ من واقع معضل يهز القوالب الثابتة التى تحيط بالناس ويخرجهم منها حيارى يبحثون فتتلقاهم الفكرة فى ظاهر مبهر متمثل فى كينونة حضارية برلحقة تخطف الأبصار .

وهذه هى نقطة البدء دائماً فى لقاء الأفكار والأفئدة .

وفى محاضرة ألقيتها منذ أعوام فى مؤتمر الطلبة المسلمين بانجلترا عن مهمة المسلم فى الغرب ركزت على أمر بدا غريبا لكثير ممن استمعوا إليه . فإنك إذا ذهبت إلى الغرب وجدت طالباً مسلماً متحمساً يحاول أن يدعو الغربيين إلى الإسلام ولسانه لا يكاد يسعفه وكينونته الحضارية تبدو متخلفة بالنسبة لهؤلاء القوم ثم حداثة وجوده فى مثل هذه المجتمعات تحول بينه وبين فقه أحوالهم . وهنا قلت أن مثل هذا المسلم يحرث فى البحر .. فالإنجليزى المستقر فى هيكله الحضارى المتوجه بكليته لمجتمعه لا يفهم ماذا يبغيه هذا المسلم المتحمس .. ولا يكاد يفهم حديثه عن النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى الإسلامى وهو يعرف من أين جاء هذا المسلم وإلى أين يعود . فمثل هذه الداعية قد افتقد مجموعة من الشروط لإنجاز مهمته ، افتقد اللغة كأداة هامة للاتصال وافتقد التكافؤ الحضارى فى شخص أمته وهو شرط ضرورى للتهيؤ النفسى عند المدعو ، وافتقد المعرفة بأسرار المجتمع وخباياه حتى يستطيع أن يربط بين دعوته وحلول المعضلات السائدة فى المجتمع .

أى أنه افتقد معظم الشروط الأساسية لإنجاز مهمته ولم يبق لديه إلا حماس غالب ورغبة صادقة فى تبليغ دعوته .

والدعوة الإسلامية قد وجدت طريقها فى الغرب فى مجموعتين :

المجموعة الأولى تحيط بها معضلة عامة وهؤلاء هم اخوتنا المسلمون السود فى

أمريكا . والمجموعة الثانية تحيط بها معضلة خاصة وهؤلاء هم كثير من الفلاسفة والمفكرين الغربيين من أمثال جارودى وبوكاى .

أما أصحاب المعضلة العامة فيدخلون إلى الفكرة الجديدة من خلال شخصية مبهرة منهم أى من خلال شخصية الزعيم الذى يربط بين واقعهم المعضل وبين الفكرة الجديدة ربطاً كافياً لانجذاب الجماهير إلى الفكرة دون الحاجة لفهم كامل لها ولدورها فى تغيير واقعهم المعضل .

والأمة العربية الإسلامية هى من هذا النوع الأخير الذى تحيط به معضلات من كل نوع ومن ثم فهى متهيئة نفسياً لظاهرة « الزعيم » المنقذ الذى يربط هذا الواقع المعضل بفكرة يتبناها ويدفع المعجبين به إلى الإعجاب بها . وعندما يترجم الزعيم فهمه للفكرة إلى مجموعة من الممارسات الحياتية الواضحة فإن الفكرة تنتقل حينئذ إلى عالم الفعل حيث يحاول الأتباع تقليد عالم الأفعال للزعيم ما اتصل منها بالفكرة ومالم يتصل .

ومن الأفكار ما هو محورى (PIVOTAL) محول (STEERING) بسيط يؤتى أكله بعد حين ، وهذا النوع من الأفكار هو أخطرها وأبعدها أثراً . فعندما يكون وراء الفكرة تراث ضخم من الأفكار الأخرى يصبح الإيمان بها سبيلاً إلى الإيمان بمجموعة ضخمة من الأفكار متدثرة بالفكرة المحيطة .

فإذا استقرت فى أذهاننا فكرة تؤكد عظمة الحضارة الغربية وأننا جزء من الغرب وأن مستقبل ثقافتنا يجب أن يستقبل الغرب كقبلة نرضاها أصبحت أفئدتنا مستعدة لاستقبال سيل عظيم من الأفكار الجديدة التى سوف تطرد فى طريقها لامحالة كثيراً مما استقر فيها من أفكار .

وانظر كذلك إلى نموذج من النماذج السائدة فيما يسمى بالتيار الإسلامى . ففكرة العودة إلى الإسلام تحولت عند البعض إلى العودة إلى تراث السلف الصالح وهذه بدورها تحولت إلى كتب التراث وهذه فتحت الأبواب لأتباع الفكرة الأولى لكم ضخم من الأفكار والأفعال التى ينبغى تبنيها .. ولا تسل الأتباع حينئذ عن صحة الأفكار والأفعال ولا عن صحة النقل وتقوى الناقلين ولا تسل كذلك عن

الظروف البيئية والتاريخية والاجتماعية التى أحاطت بالأفعال والأفكار المقلدة .. فأنت إن سألت فكأنما تضع عقائد مقدسة دونها الموت الزؤام .

وقبل أن نختتم هذه المقدمة لا بد أن نشير إلى حركة الأفكار من مجال إلى مجال فربما نشأت فكرة فى مجال من مجالات الحياة : الاقتصاد أو الفن أو السياسة أو الاجتماع أو العلوم التطبيقية ولكنها بعد حين تترجم على يد علماء المجال الذى نشأت فيه إلى مجال آخر حيث يتبناها بعض علماء هذا المجال لينشروها فى مجالهم .

ولعله من أحدث ظواهر انتقال الأفكار عبر حدود المجالات المختلفة انتقال مجموعة الأفكار المحيطة بالقانون الثانى للديناميكا الحرارية إلى مجالات الاجتماع والفلسفة . ولقد كان هناك إرهاصا بهذا الانتقال فى مجموعة من المقالات والتعليقات هنا وهناك حتى ظهر حديثاً كتاب كامل يبشر بهذه الأفكار فى مجالات الحياة المختلفة وهو كتاب « الإنتروبيا » .. نظرة جديدة للعالم « لمؤلفه جيمى ريفكن » .

وقد نشر هذا الكتاب فى أمريكا عام ١٩٨٠ .

ولسوف أتعرض لهذا الكتاب فى هذا الفصل وفى فصول أخرى . ولقد حاولت وضع هذا كله فى مجموعة من النظريات الأولية فى تركيز شديد آملاً أن يرزقنى الله الوقت والجهد لأتوفر عليها فى المستقبل بحثاً وتفصيلاً .

ولكننى أرجو أن أكون قد وفقت فى إعطاء صورة واضحة أولية عن ديناميكية الأفكار للذين تشغلهم دواعى الإصلاح والتى لابد وأن تقودهم لمواجهة مع أفكار سائدة ورغبة فى نشر أفكارهم الخاصة .

ولعل هذه المقدمة قد أوضحت أهمية التركيز على الأفكار المحورية المحولة ومحاولة دراستها وفهمها لأنها هى المفاتيح لعوالم كثيفة من الأفكار الصغيرة .

ومن العبث الانشغال بالحوار حول القضايا الصغيرة ومحاولة إصلاحها .

المتوسط الفكرى وأجهزة الإعلام

لكل فكرة مسار تاريخى تمضى فيه حملاً وميلاداً وانتشاراً وانحساراً وتطوراً وموتاً وبعثاً ونشوراً .

ولا جدال أنه يحكم مسار الفكرة التاريخى مجموعة من القوانين الاجتماعية التى يمكن أن تندرج تحت علم قديم حديث وهو علم الاتصال .

والذين يدركون بعض أسرار هذا العلم يملكون سلاحاً رهيباً يستخدمونه فى تحريك الجماهير لما يريدون من خير أو شر ، ويساعدهم على ذلك وسائل الإعلام والنقل المتعاظمة فى قدراتها يوماً بعد يوم . ولا جدال أن جزءاً عظيماً مما تعانيه الإنسانية اليوم من تيه وضلال وغشاوة عقائدية مصدره هذه القدرات التى امتلكتها وسائل الإعلام ومن يستخدمونها فى تحريك الجماهير يميناً وشمالاً شرقاً وغرباً فى سرعة متسارعة وعنف شديد . فالإنسان المعاصر يتعرض كل يوم لكم هائل من الإشارات الموجهة نحو أفكار شتى من خلال وسائل الإعلام المتداعية عليه من كل حدب وصوب . ففى نفس الجريدة الصباحية فى القاهرة يقرأ الإنسان لكاتب مرموق فيلسوف إشارات توجهه لكتاب طه حسين فى الشعر الجاهلى حيث يلقى هناك مجموعة من الأفكار التى تزرع الشك فى قلبه حول القرآن الكريم ثم ينتقل لصفحة أخرى تأخذ بيده فى دروب الإيمان بالقرآن الكريم وصفحة ثالثة ورابعة وعشرات الكتاب من كل فكر وجنس يحتشدون على القارىء المسكين جذباً من هنا ومن هناك .

والإنسان فى العادة يستطيع أن يتحمل قدراً بعينه من هذا « الضغط الفكرى » المنهال عليه ثم يفقد بعد ذلك القدرة على أن يتبين الأشياء والمفاهيم ليصل فى النهاية إلى « متوسط فكرى » ردىء . وأردأ ما يكون هذا المتوسط يكون فى بلادنا النامية التى تعيش فى بيئة تاريخية قديمة اتصلت ببيئة حضارية معاصرة . بيئتان غير ممتزجتين .. للبعض ... هذه عذب فرات وتلك ملح أجاج .. وللبعض هذه ملح أجاج وتلك عذب فرات .

وفى مواجهة هذا الضغط الفكرى الذى تمارسه وسائل الإعلام العصرية على أفئدة المواطنين البؤساء يلوذ البعض بالهرب والفرار منها بمقاطعتها وعدم التعرض لها . ونحن نعرف أن قطاعات كثيرة من الإسلاميين تقاطع جهاز التليفزيون فلا تدخله بيوتها درءاً لخطره وتقليلاً للضغط الإعلامى المنهال عليها .

وما يفعله بعض الإسلاميين فى بلادنا يفعله بعض الغربيين فى الغرب ولأسباب مختلفة تتعلق بالقدرة على التحمل لهذا الكم الهائل من المعلومات فى مجتمعات تفيض بالمعلومات على أفرادها من كل جانب مما يسبب للبعض إجهادات نفسية لا يقوون على تحملها ومن ثم يقللون من التعرض لها فلا يقرأون الجرائد ولا يستمعون إلى نشرات الأخبار بل ويفصلون أجهزة التليفونات فى بيوتهم حتى لا يَسْمعون ولا يُسمعون . والحق أننا يجب أن لا نستهين بآثار هذا الضغط الإعلامى على شخصية الأمة سلباً وإيجاباً ولا جدال أننا فى حاجة إلى دراسات متصلة حول هذا الضغط الإعلامى كما ونوعاً .

فانظر رحمك الله إلى الجهد التربوى الذى بذله كل المشتغلين بالعملية التعليمية فى بلادنا وفى غيرها ليصلوا إلى طرائق حديثة فى وسائل التعليم ومناهجه من خلال المدرسة والمعهد والجامعة ثم تدبر بعد ذلك هذه الممارسات الاعلامية من خلال أجهزة جبارة فى غياب جهد مبذول للوصول إلى الطرائق المثلى لهذا الأعلام وللمنهج والفلسفة المثلى التى نستطيع من خلالها الوصول بالشعب إلى ما نصبو إليه من تقدم وازدهار . على العكس من ذلك تركنا هذه الأجهزة الجبارة فى أيدى قطاعات من الفنانين والسياسيين يسوسونها كما يريدون لتصل فى النهاية بالكثرة الغالبة من الأمة والتى استسلمت لهذا الطوفان الإعلامى إلى ما أسميناه بالمتوسط الفكرى الردىء . وعن يمين وعن شمال من هذا المتوسط الفكرى الردىء تنمو تيارات فكرية وتحاول أن تشق طريقها إلى أفئدة الجماهير المأسورة بسلاسل هذا المتوسط الفكرى الردىء وهى لا تملك من وسائل هذا الإعلام إلا نذراً قليلاً .

فتتخذ بعض هذه التيارات لنفسها طريق العزلة الفكرية حيث تقطع نفسها عن تيار الإعلام العام صحافة وإذاعة وتليفزيون وتتوجه بأصحابها إلى مصادرها

الخاصة تصوغ فكرهم على يديها وتصنعهم بطرائقها وتحيطهم بجو خاص يبعدهم عن ما أسميناه بالمتوسط الفكرى الردىء .

ولا جدال أن هذا المنهج فى مواجهة تيار الاعلام العام سوف يعرض أصحابه لإجهادات نفسية واجتماعية بالغة وهو اختيار يبدو سهلاً فى تطبيقه ولكن آثاره على الذين يتخذونه غالباً ما تكون مدمرة للغاية وخاصة عندما تختلف الأسس الفكرية بين التيارات الجانبية وبين المتوسط الفكرى السائد اختلافاً مبيناً . فالبيئة الفكرية فى مجتمع ما تطبع أفراده بطابعها الخاص وتهيمن عليهم هيمنة ظاهرة وباطنة ولا يمكن إلغاء آثارها فى النفس باعلان الاعتزال يعلنه الفرد أو تعلنه الجماعة سخطا على المتوسط الفكرى السائد ورغبة فى فكر أرقى وأسمى . فإن هؤلاء المعتزلة إذا استطاعوا أن يعتزلوا وسائل الاعلام الفكرى الظاهرة مثل الصحافة والتليفزيون والإذاعة فإنهم لن يستطيعوا اعتزال الشعب « الحامل » لهذا المتوسط الفكرى ،

ومن ثم فهم يتعرضون لهذا الفكر من خلال الاتصال الجماهيرى مع أمتهم . ولقد رأيت تجارب المهاجرين المسلمين فى الغرب وقد أحاطت بهم وسائل الإعلام الغربية من كل جانب فآثر بعضهم أن يتخذ الاعتزال لهذه الوسائل سبيلاً ولكنها فى النهاية أحاطت بأسرته وأدركه طوفانها وكأن الاعتزال هو جبل ابن نوح الذى لا يعصم من الطوفان الكاسح الذى يأخذ فى طريقه كل شىء . ولقد وجدت من التجربة أيضاً أنه فى مواجهة مثل هذه الأوضاع يصلح أمران .

الأمر الأول :

هو فى محاولة تمييز عالم الغيب الإسلامى فى مواجهة عالم الغيب السائد وكلما دق التمييز كلما قل تأثير المتوسط الفكرى الردىء على عقلية المتميزين .

الأمر الثانى :

هو أنه يمكن بعملية ترجمة ذهنية ووجدانية أن يتحول الفن المرتبط بفكر ما إلى فن يخدم فكراً آخر .. أى أن هناك أجزاء محايدة فى الفنون يمكن تسخيرها فى خدمة أفكار مختلفة بتغيير بسيط فى بعض خطوطها .

ولقد كنت فى طفولتى أعشق سماع المنشدين فى موالد قريتنا وهم يحيون الليالى الطوال فى مديح الرسول ﷺ وكان بعضهم يلجأ أحياناً إلى عملية الترجمة حيث ينشد بعض القصائد العاطفية التى تغنيها الفنانات فيحولها بشىء من التغيير البسيط إلى أنشودة مديح النبى .. وإذا بالأنشودة المبتذلة تتحول إلى أنشودة ذات أريج دينى جميل .

كما أن عملية الترجمة هذه تحدث فى حياة الشعوب عندما تنتقل من عقيدة إلى عقيدة حيث تبدأ هذه الشعوب فى عمليات ترجمة لفنونها حتى تتسق مع العقيدة الجديدة وتتناغم معها .

نماذج لتطور الفكرة من الإرهاص إلى الاستبطان الجماهيرى :

نتعرض فى هذا الفصل لثلاثة نماذج تصف ديناميكية انتشار الأفكار .
نتعرض أولا لديناميكية انتشار الفكرة فى مجتمعات إبداعية .
ثم نتعرض لهذه الديناميكية فى مجتمعات بسيطة تفتقر إلى الإبداع .
ثم نختتم بوصف لعملية الانتشار المحيطى لفكرة وافدة إلى مجتمع بسيط .

وانى لمن المؤمنين بأهمية مواصلة الجهد فى اكتشاف أبعاد جديدة لعمليات انتشار الأفكار فى مجتمعاتنا ، ليس فقط من أجل معرفة أفضل الوسائل للحكمة والموعظة الحسنة ولكن أيضاً لمحاولة افساد كل وسائل الشيطان المدمرة لغزونا روحياً وثقافياً بعد أن أصبحنا فى مهب الريح فى عالم يعج بالأفكار المضببة والتيه العقيدى .

ميكانيكية الانتشار الفكرى فى مجتمعات مبدعة :

١ - واقع معضل يؤدى إلى الشك فى البنية التحتية للحياة أو التصور المستكن فى أعماق الناس مكونا بذلك مناخاً صالحاً للتلقى .

٢ - ارهاصات فكرية متعددة تمس جوانب من الفكرة الجديدة ولكن مازال ينقصها الكمال والجمال .

٣ – شخصية عبقرية تحمل بكل هذه الارهاصات لتولد الفكرة الجديدة من خلالها فى وقت معلوم ومكان معلوم ومجال معلوم .

٤ – تبنى الفكرة من مثقفى المجال الذى نشأت فيه الفكرة .

٥ – إنتشار الفكرة فى مجالها الأول بالتعليم والإعلام .

٦ – نشوء انطباعات فلسفية وجمالية للفكرة فى مجالها الأول .

٧ – إنتقال الانطباعات الفلسفية والجمالية عبر حدود المجال الأول إلى مجالات فى الحياة من خلال شخصيات جدلية تربط بينها وبين واقع معضل فى المجال الجديد ومن ثم يبدأ الانتشار فى المجال الجديد .

وننظر إلى فكرة النسبية والتى أصبحت واحدة من ست أفكار أساسية تكون ضمير الإنسان الغربى المعاصر . نشأت هذه الفكرة فى مجال الفيزياء . كان علماء الفيزياء فى مطلع هذا القرن قد اصطدموا بعقبات كؤود فى محاولة تجريد قوانين الكهرومغناطيسية من تأثير المحاور المنتظمة الحركة بالنسبة لبعضها البعض وأصبحت أفكار الميكانيكا الكلاسيكية غير قادرة على حل هذه المعضلات وأصبح هناك شك فى البنية الأساسية لعلم الفيزياء . وفى هذه الفترة بدأت تنمو بعض الإرهاصات بتصور جديد تؤيده بعض التجارب الهامة المتعلقة بثبوت سرعة الضوء فى كل المحاور المنتظمة الحركة بالنسبة لبعضها البعض . وكتب لورنتز مقالا هاماً فى عام ١٩٠٢ أشار فيه أن تصوراً جديداً لعلاقة الزمن بالمسافة سوف يبزغ لو أردنا حل معضلات الكهرومغناطيسية وفى عام ١٩٠٥ م ولدت النظرية النسبية لأينشتاين فى مجالها الأساسى « علم الفيزياء النظرية » . وظلت هذه الفكرة تنشىء فى مجالها أفكاراً جديدة بعد أن تبناها علماء الفيزياء . ثم سرعان ما انتقلت خارج إطار علم الفيزياء النظرية إلى مجالات أخرى فى الفلسفة والاجتماع والفنون حتى أصبحت كما أسلفنا إحدى ستة أفكار تكون ضمير الإنسان الغربى المعاصر .

مثال لميكانيكية الانتشار العقيدى فى مجتمعات بسيطة :

١ – التفريغ العقيدى لإحداث منطقة فراغ للفكرة الجديدة فى عالم التصورات .

٢ – الانبهار بصاحب الفكرة وترجمة الفكرة إلى مجموعة أفكار بسيطة تتصل بحياة الناس .

٣ – ترجمة الفكرة إلى أفعال عند بعض النماذج البشرية المبهرة .

٤ – الربط السطحي للأفعال المبهرة بالفكرة الأصلية .

٥ – الاعتناق للفكرة من خلال الأفكار المبسطة والأفعال المبهرة .

٦ – الفكرة الجديدة تحدث عالم أفعال خاصة بها .

٧ – الفكرة الجديدة تصبح أداة تفكير للحياة بطريقة لا شعورية أى يحدث إستبطان لها على مستوى الجماهير .

تبدأ دائماً عملية الانتشار العقيدى لفكرة جديدة بعملية تفريغ للعقائد السابقة المستكنة فى أفئدة صحابها والتى يراد استبدالها بالفكرة الجديدة . وتعتمد عملية التفريغ على وسائل شتى فى علوم الاتصال الجماهيرى تزداد مع الأيام تعقيداً وقدرة وأحسب أن أعداء أمتنا يملكونها ويستخدمونها فى تفريغنا عقيدياً حتى نتهيأ لاستقبال الجديد الوافد. وتتميز وسائل التفريغ الحديثة بالنعومة الشديدة التى لا تستفز فى الرجال عنصر المقاومة والدفاع عن الحرمات والمقدسات وإنما تجد طريقها فى بطء وقوة من خلال الهجوم الجانبى المستتر والمغلف بأغلفة علمية شتى . ففى مجال تفريغنا من الإسلام كعقيدة بعد أن ذهبوا به كشريعة ونظام لجأوا إلى التشكيك فى لغتنا وقدرتها على التبنى العلمى والتقنى ولجأوا إلى التشكيك فى آدابنا القديمة وتراثنا الشعرى وأعادوا كتابة التاريخ من زوايا تظهر ما يريدون من اتجاهات مادية متفرقة وأحاطوا بعض هؤلاء الكتاب بهالة عظيمة من التمجيد والتفخيم فى حياتهم وبعد مماتهم وملأوا وسائل الإعلام بأسمائهم بحيث أحاطوا الناس من كل جانب ومهدوا بذلك لتبنى الغث من أفكارهم .

مثال لميكانيكية الانتشار المحيطى (أو الانتشار من الخارج) فى مجتمعات بسيطة

١ – تمثل فكرة فى مجتمع عصرى مبهر .

٢ – شخصية جدلية تربط بين الفكرة ونواحي الإبهار في مجتمع آخر .

٣ – نماذج داخلية تتبنى أشكالاً من الفعل خاصة بالمجتمع المبهر .

٤ – إنتشار التقليد لعالم الفعل الذي قدمته النماذج الداخلية على قدرها .

٥ – إنفصام الشخصية الاجتماعية بين عالم الفعل وعالم العقيدة .

٦ – شخصيات جدلية تؤقلم الأفكار المستوردة مع الأفكار المستبطة .

٧ – إتحاد عالم الفعل وعالم العقيدة حيث يحدث الاستبطان الجماهيري .

عالم الغيب .. حيثيات هامة :

نحن نفكر ومن ثم نفعل من خلال الغيبيات السائدة في عالم عقيدتنا الداخلي . وتتكون أية عقيدة من مجموعة من الغيبيات .. تستوي في ذلك العقائد الدينية والعقائد المادية . وتقاس صلاحية العقائد بقدر الاتساق الداخلي في مجموعة الغيبيات التي تكون العقيدة والاتساق الخارجي فيما يصدر عنها من أفعال وكذلك بقدر السلام الروحي الذي يحيط بهذه الغيبيات .

ونحن أحياناً نقول مالا نفعل ولكننا لا نفعل إلا ما نؤمن به ولو كان هذا الإيمان لفترة وجيزة جداً .. « فلا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » . من حديث نبوي شريف رواه الشيخان وغيرهما[1]

وربما اقتحمت عقيدة بغيبياتها المتسقة داخلنا طاردة ما قبلها في فترة وجيزة أمام الإشراق المبهر لنبي أو لمصلح عظيم .. ولكن في غير هذه الأحوال تتسلل الغيبيات إلى داخلنا في هدوء وعلى مهل .. كدبيب النملة البيضاء في الليلة السوداء على الصخرة الصماء . وربما لا تصبح غيبية بعينها أداة تفكير ولا مصدر أفعال للذين أطلقوها أول مرة ولكنها تصبح كذلك عندما تنشأ عليها أجيال جديدة .. ترضعها في طفولتها مع لبن الأمهات وتتربى عليها في مراتع الصبا وملاعب الشباب .

---

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذري : ٣/٢٤٨ ط مصطفى الحلبي ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م . وفي هذه الفقرة من الحديث النبوي الشريف حل الإيمان بالمنكر والاقتناع به لحظة مقارفته محل الإيمان المانع من السقوط والتردي بعد أن استحق المنحرف الذي هو أدنى بالذي هو خير .

والأفعال كما أخبرنا – هي مرآة العقيدة . ومن هنا نستطيع الحكم على اضطراب العقيدة من اضطراب الأفعال – وعلى سلامة العقيدة من سلامة الأفعال .

ويمكن أن تتسلل مجموعة من الغيبيات إلى مجموعة تناقضها ولكنها معطلة فى صمت بفعل غيبية ثالثة لا يظهر فيها التناقض ويؤدى ذلك لا محالة إلى الصراع الداخلى حتى تنتصر إحدى المجموعتين . فلو آمن الإنسان المسلم بالمعاصرة – أى أن يكون على مستوى عصره – يكون قد أضاف إلى عالم عقيدته غيبية محايدة ولكن من خلال غفلته تتسلل إلى عالم عقيدته فى عملية التعصير مجموعة من الغيبيات الجديدة ربما تكون مناقضة لغيبيات عقيدته .. ومن هنا يبدأ الصراع الداخلى حتى يتم الاختيار .

ولقد تعرضت فى هذا الفصل لثلاثة عوالم للغيب :

عالم الغيب المسيحى فى القرون الوسطى فى أوروبا .

عالم الغيب فى الحضارة الغربية المعاصرة .

عالم الغيب فى الفكر الإسلامى كما أؤمن به .

وعالم الغيب أو الميتافيزيقيا الفكرية هو الأساس الذى يتحرك الإنسان انطلاقاً منه .. علم أو لم يعلم .

وليس هناك فى الأرض إنسان يتحرك من غير عالم غيب .

وعتاة الماديين يتحركون فى إطار عالم غيب خاص بهم .

ونحن إذا لم نسع لتركيز عالم غيبنا فى أنفسنا فلسوف يتركز فيها عالم غيب آخر .

والأمة المسلمة فى حاجة لبحوث متصلة لتحديد هيكل عالم الغيب الإسلامى بوضوح شديد نعمل على نشره وتثبيته فى الأفئدة حتى يصبح مصدر إشعاع فى كل حركتنا فى الحياة .

فلن نستطيع أن نقيم تعليماً من غير وضوح عالم الغيب الذى ننطلق منه .. فليس هناك اقتصاد وضعى أو سياسة وضعية .. وإنما هناك اقتصاد قيمى وسياسة

قيمية .. فالاقتصاد الوضعي POSITIVE والسياسة الوضعية لها فى الواقع عالم غيب سواء علمنا ذلك أو جهلناه .. وسنتعرض لذلك بتفصيل أكثر فى فصل « التعليم في الحضارة ».

عالم الغيب المسيحى فى القرون الوسطى فى أوروبا :

يلخص مؤلف كتاب الأنترويبا النظرة الغيبية المسيحية فى القرون الوسطى فى الأصول الآتية :

١ – الحياة مرحلة إعداد للآخرة .

٢ – التاريخ هو عملية اضمحلال مستمرة يبدأ بالخلق ثم الفناء ثم قيام يوم الساعة فى حركة خطية تبذر فيها قوى الشر بذور الفوضى والتحلل .

٣ – عقيدة الخطيئة الأولى أقنعت الناس بأن البشرية لن تنعى حظها فى هذه الحياة الدنيا .

٤ – العالم هيكل مرتب بأحكام يحكم الله فيه كل حدث
أنه إله شخصى يتدخل فى كل شئون الحياة
فإذا حدثت أشياء أو لم تحدث أشياء فلأن الله شاء
إن الله قد صنع التاريخ ولم يصنع الناس .

٥ – لم تكن هناك أهداف شخصية ولا رغبات للتقدم أو أن يترك الناس وراءهم شيئاً .. إنما كان هناك فقط أوامر الله لتنفذ بإخلاص .. أو كما يعبر المؤرخ جان راندال « كل شيء لا بد أن يحتوى على معنى ليس فى ذاته أو من أجله ولكن من أجل رحلة الإنسان » .

إن غاية كل فعل وكل حدث يبزغ مرتبطة بقصد فى الحكمة الإلهية .

٦ – إن النظرية الغيبية المسيحية أعطت القرون الوسطى فى الغرب نظرية موحدة شمولية للتاريخ . ولم يكن هناك مكان للفرد فى هذه التركيبة الدينية الضخمة .

ولم تكن هناك الحرية والحقوق بل كانت الواجبات والمهام هى التى وحدت وربطت إطار التاريخ فى القرون الوسطى .

٧ - وكما كانت عقيدة الإغريق كان مفهوم التاريخ فى مسيحية القرون الوسطى متناقضاً لفكرة النمو المضطرد والاستكثار المادى .

لم يكن هدف البشرية تحقيق عالم الأشياء المادى ولكن كان هدفها الخلاص ومن هذا المنظور كان المجتمع ينظر إليه كوحدة عضوية كلية .. تقودها العناية الإلهية ولكل فرد فيها دور يقوم به .

عالم العقيدة فى الحضارة الغربية

تملأ عقلية الإنسان الغربى ستة أفكار أساسية تشكل عالم الغيب فى داخله وتنطلق منها كل مواقفه الفكرية والفعلية ويلخصها شوميتشر كما يلى :

أولاً : فكرة التطور .. صور عليا للحياة تتطور من صور دنيا بطريقة طبيعية وذاتية . ولا يقتصر هذا التطور على الماديات بل يشمل كل المعنويات مثل اللغة والدين والقيم ...

ثانياً : فكرة التنافس والاختيار الطبيعى والبقاء للأنسب وهى فكرة تؤيد وتدعم فكرة التطور وحدوثه بطريقة طبيعية وذاتية ولقد آلت فكرة البقاء للأنسب إلى فكرة البقاء للأقوى .

ثالثاً : فكرة ماركس فى صراع الطبقات وأن كل المظاهر العليا للحياة مثل الدين والفن والفلسفة ما هى إلا مجموعة أوهام فى عقول الرجال تخفى وراءها مآرب اقتصادية .

رابعاً : فكرة فرويد التى تفسر كل المظاهر العليا فى الحياة كنتيجة لما ترسب فى العقل الباطن من رغبات مكبوتة فى سن الطفولة والمراهقة لإتيان المحارم .

خامساً : فكرة النسبية منكرة كل مطلق ... هادمة كل المقاييس والمعايير ..

سادساً : فكرة الوضعية (positivism) والتى تقول أن المعرفة الحقة هى التى

يمكن الحصول عليها بطرق العلوم الطبيعية وعلى هذا لا يمكن تبدل المعرفة إلا إذ كانت قائمة على حقائق المشاهدة وحدها .

ويعلق شوميتشر على هذه الغيبيات الستة التي تحيط بعقل الإنسان الغربي وتملأ عليه أقطار نفسه فلا يتنفس إلا بها فيقول :

« إن هذه الأفكار تمثل وثبة ضخمة للخيال إلى المجهول وإلى الذى لا يمكن معرفته . بالطبع لقد بدأت الوثبة من قاعدة صغيرة تشتمل على بعض الحقائق المشهودة . وأن هذه الأفكار ما كانت لتستكن فى عقول الرجال لو لم تحمل فى طياتها قدراً من الحق . ولكن المشكلة الأساسية فى هذه الأفكار هى فى ادعائها العمومية . فماركس لا يقول أن مراحل معينة من التاريخ تتميز بالصراع الطبقى ولكنه يزعم بغير علم أن « المادية العلمية » تصبغ كل تاريخ البشرية بالصراع الطبقى . وفرويد لا يكتفى أن يقدم عدداً من الحالات والمشاهدات الكلينيكية والتى تخص بعض المرضى ولكنه يقدم نظرية للنزوع الإنسانى زاعماً أن كل الأديان ما هى إلا عصاب استحواذى .

على أى شىء تشتمل هذه الأفكار الستة الكبار بجانب طبيعتها الغيبية غير العلمية . ؟ أنها جميعاً تحط من قدر القيم العليا وتعتبرها بعض مظاهر المادة الدنيا وتزعم أن الإنسان كبقية الكون حدث بطريق الصدفة البحتة من تجمع الذرات المكونة له .... وأن الفرق بين الحجر والإنسان ما هو إلا مظهر خادع ...

وإن الإنجازات الثقافية العظيمة للإنسان ما هى إلا أطماع اقتصادية مغلفة أو فيض من اضطراب جنسى .

عالم الغيب فى الفكر الإسلامى كما أومن به :

١ – الله واحد لا شريك له .... له الأسماء الحسنى – لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير (الأنعام/١٠٢) . (١)

٢ – غاية الوجود عبادة الله جل وعلا . (٢)

وتتلخص العبادة فى :

- التعبد بالروح (٣)
- التعبد بالشهوات (٤)
- التعبد بالجوارح (٥)
- التعبد بالعقل (٦)
- التعبد بالاجتماع الإنسانى (٧)

٣ - العوالم فى الكون من حولنا عوالم صديقة ... تسبح لله وتكبر .. ولا نتعامل معها إلا بالحق .

ومعالم هذا الحق هى :

- وجـه الله
- الرحمة
- القصد والاقتصـاد
- النفع العـام
- العلم بسنن الله فى الوجود .

٤ - معيار الرجال هو التقوى
ومعيار الأعمال هو نفع الناس
ومعيار النجاح هو مرضاة الله فى النفس والناس والكون .

٥ - كينونتنا رافد متميز يعرف منه الناس يوم مولدنا ويوم موتنا ونؤمن ببعثنا وحسابنا وجزائنا ونؤمن كذلك أننا سنقبل على الله فرادى وأن أعمالنا ستوزن بدقة الهية ... « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .... « ألّا تزر وازرة وزر أخرى » .

٦ - أدوات البرهان هى العقل والحواس والقلب ... فنحن نؤمن بالقرآن من خلال التناسق الداخلى للكتاب والإعجاز المذهل فى كافة نواحيه واستلهام القلب .

٧ - مسئولية الإنسان فى مساحة اختياره ... أما سعة المساحة فجبر فى علم الله لا نملك منه شيئا .

ملاحظات حول عالم الغيبيات الإسلامى كما أومن به :

يترسب عالم الغيب فى أعماقنا من مصادر مختلفة فى الحياة ... لقد حاولنا من قبل أن ندرس ديناميكية هذا الترسب ورأينا أنه يحدث فى بطء شديد كدبيب النملة البيضاء على الصخرة الجرداء فى الليلة الظلماء .

ولقد حاولت أن أجمع عالم الغيب فى نفسى كما أومن به ، هل هذا الذى أومن به هو عالم الغيب المرجو فى عقائد الإسلام ... مبلغ علمى أنه كذلك ... ولكن الأمر يجب أن يكون موضع بحث دائم فى المصدر الأساسى لعالم الغيب الإسلامى ألا وهو القرآن .

فأى محاولة فردية لتحديد عالم الغيب من القرآن ستظل محاولة فردية يعتريها الخطأ والنسيان والضلال . ومن هنا يجب أن يصبح عالم الغيب وتحديده الدقيق موضوع بحوث متصلة .

وربما سيتفق معى معظم الباحثين فيما صورته من هيكل عام لعالم الغيب الإسلامى ولكن يبقى بعد ذلك جهد كبير فى إكمال جزئيات هذا الهيكل وإتمامه حتى يصبح مصدر إلهام ونقطة بدء فى أى بناء حضارى نريده ...

فمثلاً سيؤدى هذا التصور العام إلى تصور جزئى يتعلق بموقفنا من المال .. أى بالاقتصاد ، هذا الموقف الجزئى ، أو عالم الغيب الاقتصادى الإسلامى هو القاعدة التى يجب أن نقيم عليها علوم الاقتصاد ، فكما سيتضح بعد فإن هذه العلوم ليست وضعية ، وإنما هى علوم قيمية ... أى أنها تقوم أصلاً على مجموعة من الغيبيات .. فإن لم نضع غيبياتنا فلسوف يضع الشيطان غيبياته .

ولا بد أن يسأل الباحث مجموعة من الأسئلة تتعلق بمجموعة العقائد المكونة لأى عالم غيب .

أولاً : هل هذه العقائد مستقلة بعضها عن بعض ... أم أنه يمكن اختصارها لعدد أقل منها ...

ثانيا : هل هي متعارضة متضاربة فيما بينها ... تؤدى إحداها إلى فعل وتؤدى الأخرى إلى فعل مناقض ... بحيث تؤدى إلى اضطراب معتقديها ومن ثم لا يمكن أن تؤدى إلى قيام نظم حياتيه على أساسها .

وهذا المقياس قرآنى « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »[1] وأخيراً إذا كان عالم الغيب السائد مناقضاً لعالم الغيب المرجو فلا بد أن تنشأ فى الأمة أجهزة للعمل على إلغاء هذا الزيغ بين السائد والمرجو ... أجهزة تعمل من خلال التعليم والتربية ... مدركين أن إلغاء هذا الزيغ أمر يحتاج إلى وقت ... يمكن أن نجعله قصيراً عندما يتمثل عالم الغيب المرجو فى شخصية مبهرة تشخص إليها الأبصار ... كما كان رسول الله ﷺ .. كان خلقه القرآن .

---

(١) ٤ : النساء / ٨٢

ملحق
عالم الغيب فى الفكر الإسلامى
٢٦

١ - كذلك مما يشير إلى هذه الآيات القرآنية الآتية :

« هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم* هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون* هو الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . (٥٩ : الحشر ٢٢ - ٢٤)

« سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم* له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير* هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم* هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم ، الله بما تعملون بصير* له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور* يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور (٥٧/الحديد/ ٦) .

« قل هو الله أحد* الله الصمد* لم يلد ولم يولد* ولم يكن له كفواً أحد . (١١٢ : الإخلاص/ ٤)

٢ - ومما يشير إلى هذه الآيات القرآنية الآتية :

« ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات ومن فى الأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه وأنه عليم بما يفعلون » (٢٤ : النور ٤٩) .

« تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح

بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً » (١٧ : الإسراء ٤٤) . « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغد ووالاصال (١٣/الرعد/١٥) .
« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٥١ : الذاريات/٥٦) .

٣ - ومما يشير إلى هذه الآيات القرآنية الآتية :

« ونفس وما سواها* فألهمها فجورها وتقواها* قد أفلح من زكاها* وقد خاب من دساها* (٩١ : الشمس ٧ - ١٠) .

« لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة* (٧٥ : القيامة ١ - ٢)

« ... ويهدى إليه من أناب* الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب* الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب (١٣ : ١ الرعد ٢٧ - ٢٩) .

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية* فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » (٨٩ : الفجر ٢٧ - ٣٠) .

٤ - إشادة إلى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه :
إن ناساً من أصحاب النبى ﷺ قالوا للنبى ﷺ : يا رسول الله ذهب أهل الدثور - المال الكثير - بالأجور ، يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضل أموالهم .. قال : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون أن بكل تسبيحة صدقة . وكل تكبيرة صدقة . وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر صدقة وفى بضع أحدكم صدقة .

قالوا يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر . رواه مسلم فى باب الزكاة (صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٧ ص ٩١ - ٩٢ ط : محمود توفيق الكتبى بالقاهرة .

٥ – ومما يشير إلى هذا ما رواه الشيخان فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل سلامى – عضو من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس : يعدل بين الاثنين صدقة ، ويعين الرجل فى دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه صدقة ، ويميط الأذى عن الطريق صدقة » متفق عليه (رياض الصالحين للنووى ص د ٨ ط : دار الكتاب العربى بالقاهرة ١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥ م .

٦ – ومما يشير إلى هذه الآيات القرآنية الآتية :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت* وإلى السماء كيف رفعت* وإلى الجبال كيف نصبت* وإلى الأرض كيف سطحت* فذكر إنما أنت مذكر (٨٨ : الغاشية ١٧ – ٢١) .

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » ٢ : البقرة/٦٤)

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب* الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار (٣ : آل عمران : ١٩٠ – ١٩١) .

« قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا (٣٥ سبأ/٤٦) .

٧ – « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا.. إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. »

[أعدا هذا الملحق فضيلة الشيخ محمود حبيب]

الفصل الثانى

تفاعل المقاييس فى الالتقاء الحضارى

القياس روح التمدين ...

وأمة تحاول أن تقيس كل شيء بمقياس واضح دقيق ، أمة تسعى إلى التمدين . فالهواء فى الفضاء الواسع العريض حول هذه الأمة له تكوين وله ضغط وله حرارة وله لزوجة وله تأين وله رطوبة ..... وكلها صفات وأحوال تقاس بدقة بالغة فى أمة متمدينة . هذا الهواء نفسه فى أمة متخلفة كائن جمالى عندما يأتى نسيماً عليلاً وكائن قبيح عندما يأتى بريح قائظة أو ببرد زمهرير . فالطريق إلى التمدين إذاً محفوف بالمقاييس ....

وإذا فقد النظام التعليمى القدرة على تعليم الطالب أن يقيس فإنه يكون قد ضل طريق التمدين .... وضاع منه الصراط المستقيم ... كانت هذه الخواطر فى رأسى وأنا أحاول أن أنتخب مجموعة من المقاييس أقيس بها « درجة التمدين » فى مجتمع ما فى ظروف القرن العشرين . وكان ذلك منذ أعوام عندما ود أخى الصديق معالى الدكتور عبد الرحمن آل الشيخ أن أشارك بمجموعة من المحاضرات فى مادة الثقافة الإسلامية لطلبة جامعة الملك فيصل .

وفى هذه المحاضرات اخترت مقياسين للتمدين : مقياس العلاقات الإنسانية ومقياس الأحوال المعيشية . وبالطبع يمكن تفصيل كل منهما لمجموعة من المقاييس المحددة التى يمكن قياسها ومن ثم استخدامها فى عمليات التخطيط والمتابعة فى المجتمع بدلاً من هذه الألفاظ الرنانة المطاطية التى يطلقها السياسيون تعبيراً عن نجاحهم المزعوم فى نقل الشعوب من حال إلى حال .... ولو قسنا الأمور بمقاييس العلاقات الإنسانية والأحوال المعيشية لرأينا فشلاً ذريعاً وخيبة أمل كبيرة ....

وأذكر أننى فى هذه المحاضرات حاولت أن أستعرض تأثير النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعى على مقياس العلاقات الإنسانية فى مجموعة من المنحنيات المعبرة كما يلى :

العلاقات الإنسانية

النظام السياسى

الدكتاتورية	الوسط الإسلامى	الفوضى المطلقة
النظام الدكتاتورى نظام يستعبد العباد ويسخرهم لهوى شخص أو مجموعة فيكثر فى الناس التزلف والنفاق ويهرب النابهون ويخاف الناس أن يأمروا بالمعروف أو ينهوا عن المنكر فيستشرى الفساد ويضيع العدل وتعطل الحدود	الحقوق والواجبات المسئولية المعلقة فى كل الرقاب الإمامة : الدين والعلم والقدرة الشعب : حق الاختيار وحق العزل والشورى وواجب الطاعة فى المعروف	الإسلام لا يؤمن بالحرية السياسية المطلقة لأن هناك قيود عالمية وقيود داخلية تقيد الحاكم المسلم فيضطر أن يضع حدود الممارسة للحريةالسياسية حتى لا يستغلها الأعداء فى تدمير المجتمع

مستوى المعيشة

الترف	الوسط الإسلامى	البداوة والفقر
- الانكماش الفردى فى القصور المشيدة	« وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض	- الضعف والمرض وتسلط الأعداء
- نسيان الآخرة والاستغراق فى متعة الحياة الدنيا والتنافس فيها .	- الابتعاد عن الزهد الأعجمى وعن الترف والجشع .	- الانكماش الفردى فى الخيام .
- لا مقدرة على مواجهة تقلبات الحياة ولا صبر على الشدائد .	- الاعتماد على النفس فى كسب المعيشة والتعفف عما فى أيدى الناس	
- الانصراف عن التضحية والبذل اللازمين للدفاع عن الجماعة وحمل الرسالة إلى العالم .	- السعى فى اكتساب الرزق لكفاية النفس والعيال ثم القناعة والرضى بما قسم الله	
- اضمحلال وتفكك المجتمع تدريجياً .	- البذل للآخرين والإنفاق فى سبيل الله .	
	- الشكر على السراء والصبر على الضراء	

العلاقات
الإنسانية

الحرية
الاجتماعية

الحرية المطلقة	الوسط الإسلامى	الكبت الاجتماعى
- يضيع مع الحرية المطلقة حقوق الآخرين . - ويفسد نظام الأسرة . - وينمو الميل للاعتداء على الآخرين والجرائم . - وتضيع حلاوة الاستمتاع بالطيبات حيث تتحول كل الطيبات إلى خبائث - ولا تراعي مصلحة المجتمع : « إن قوماً استهموا سفينة أصاب بعضها أعلاها وبعضهم أسفلها ... إلخ »	- الضوابط الاجتماعية (ضبط وليس كبت) - الضوابط من أجل الاستمتاع نفسه فالحرية المطلقة تفقد القدرة على الاستمتاع - الضوابط من أجل الحفاظ على الأسرة فالأسرة هى حجر الزاوية فى التيار الإسلامى - الضوابط من أجل التدريب على المواطنة	- ينشأ عنه كره المجتمع الضاغط وبمجرد ما يجد الفرد أو المجتمع فرصة ينفجر فى بركان لا يمكن ضبطه

ويتفاعل الناس مع ما أحدثوه بأيديهم من تمدين حتى يكتسبوا مع الوقت صفات محددة تتفق وطبيعة هذا التمدين وتتناغم معه .... فكما سيرى القارىء فى حديثنا عن صناعة شرائح المايكرو إليكترونيك فى وادى السليكون بالقرب من سان فرانسيسكو أن هذه الصناعة أحاطت بمخترعيها من شدة تسارعها وأحاطت كذلك بالنظام التعليمى فى الجامعة فما عاد قادراً على ملاحقة تطورها .... هذا التسارع فى هذه الصناعة سينشىء تسارعاً فى الصفات العامة فى المجتمع حتى تحدث ظاهرة جديدة تؤدى إلى الاتزان أو إلى الإنهيار . فالذى صمم الآلة البخارية لم يكن يتصور ما سوف تحدثه هذه الآلة فى ميدان النقل والصناعة والزراعة .... وما ستحدثه هذه الآلة من تغيرات اجتماعية عميقة فى الأسرة والمجتمع .... فكل إضافة تكنولوجية تحدث بدورها أثراً اجتماعياً يغير من نسيج المجتمع بسرعة أو ببطىء .... وربما كانت هذه الإضافة التكنولوجية متعادلة أخلاقياً ولكن ما تحدثه من آثار يمكن أن يكون مدمراً للنسيج الأخلاقى فى المجتمع .

وبالطبع سيكون لكل تمدين مجموعة من المقاييس تصف الحجوم والأرقام والقدرات للفرد والمؤسسات ، كما تصف معدلات التغير والآماد وسهولة الحركة واتساعها . ولقد لخص صديقنا الدكتور روبرت ماجين هذه المقاييس فى مجموعتين .

أ - أبعاد مقدارية (Magnitude Dimensions)

أ - ١ العدد : لنسأل من خلاله : كم أو لنسأل عن التعددية فى الأشياء أو فى الناس أو فى الاختيارات أو فى المصنوعات أو فى المؤسسات الاجتماعية .

أ - ٢ الحجم : لنسأل من خلاله عن كبر الأشياء سواء كانت مصنوعات أو مدن أو تجمعات بشرية أو مؤسسات اجتماعية .

أ - ٣ القوة : لنسأل من خلالها عن ضخامة القدرة على تحقيق آثار معينة عند الأفراد أو المنظمات أو المصنوعات أو المهن أو المؤسسات المختلفة من الأسرة حتى الحكومة .

ب – أبعاد وصفية (.Adverbial Dimensions)

ب – ١ التحركية : (Mobility) لنسأل من خلالها عن سعة الحركة وسهولتها للناس والمواد والمعلومات كما نسأل عن التحركات الاجتماعية رأسية وأفقية كما نسأل كذلك عن التحركات النفسية فى معنى الذات ومعنى التقدير الذاتى .

ب – ٢ الآماد (Span) لنسأل من خلالها عن طول البقاء للإنسان والمصنوعات والمنظمات الاجتماعية والأنماط الفنية والحضارية .

كما نسأل كذلك عن ما تستغرقه النشاطات فى المجتمع من زمن : زمن التخطيط وزمن الإنجاز لمنشأ أو لعمل .

ب – ٣ : المعدلات (Pace) لنسأل من خلاله المعدل الذى تتم به العمليات المختلفة سواء كانت عمليات شخصية (مثل الاتصال الشخصى أو استقبال معلومات أو التعامل مع أدوات ومصنوعات أو نشاطات حياتية مثل العمل) أو كانت عمليات موضوعية مثل الإحساس بمعدل التغييرات البيئية .

فهذه المقاييس التى ذكرناها مقاييس مادية .... نقيس بها الأحوال المادية للمجتمع ويمكن أن تندرج كلها فى مقاييس الأحوال المعيشية التى ذكرناها من قبل .

أنظر مثلاً إلى عربى يصنع قهوته العربية الأصيلة .... إن عمل القهوة عند العرب مشروع حضارى ...

يوقد نـــاره ....

يحمص البن والهيل ....

يدق البن والهيل فى الهون .... دقات راقصة معبرة .

يضع دالة القهوة على النار حتى تنضج ....

يصب القهوة للضيوف بينما يطرقع فناجيلها فى حركة رشيقة ....

كم يستغرق هذا ؟ ! .... وهل يهم .... ؟

وهل يقارن الاستمتاع بكل هذه الخطوات بما يمكن أن نوفره من وقت فى شرب القهوة المجهزة قبل أن تجهز .... الناسكافيه الأمريكية ...

ذلك أن الحضارات تختلف فيما بينهافيماتوليه من اهتمام لكل مقياس من هذه المقاييس .... فينتج عن ذلك « شخصية معنوية للتمدين » لها أنماط متباينة فى الحضارات المتباينة .

فالحضارة الغربية المعاصرة قد أدت إلى تمدين الأحجام الضخمة والأعداد الرهيبة والقوة الهائلة والمعدلات المتسارعة والآماد المتصاغرة والحركة الكبيرة السريعة .... هذا النوع من التمدين بدأ يمارس إجهادات سيكولوجية واجتماعية على الإنسان الغربى نفسه .... الإنسان الذى صنع هذا التمدين ....

فبدأنا نسمع صرخات مدوية لحكماء الغرب يتنادون فيما بينهم للتفكر فى أسس جديدة للحضارة ذاتها ....

حتى أن بعض هذه الصرخات ينادى بالعودة إلى ما قبل الثورة الصناعية الأولى (أنظر كتاب جيمى رفكن : الأنتروبيا) .

ويمكننا أن نصوغ المشكلة بالنسبة لنا فى السؤال الآتى :

« ماذا يحدث عندما يحيط تمدين ذا مقاييس معينة بإنسان أو مجتمع ذا مقاييس متباينة » .

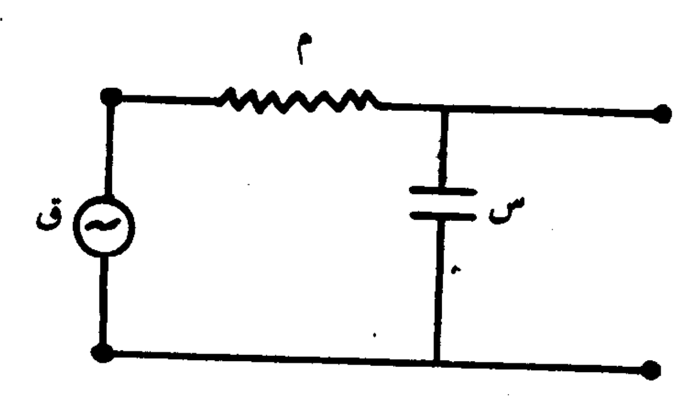
ولننظر إلى مسألة أخرى فى علم الكهرباء ....

ولنتصور مصدر جهد (ق) يؤثر على مقاومة (م) ومكثف (س) . المقاومة والمكثف يتميزان معاً بمقياس زمنى قيمته (م س) .... فإذا كان زمن تردد المصدر الجهدى (ق) مساوياً (ز) يحدث الآتى : إذا كانت قيمة (ز) فى حدود (م س) فإن فرق الجهد (ق) يظهر كاملاً تقريباً على طرفى المكثف .

أما إذا كان زمن التردد (ز) أقل بكثير من الزمن التمييزى للمجموعة (م س) فإن فرق الجهد حول طرفى المكثف سيظل صفراً مهما كانت التغييرات فى (ق) شدة وسرعة . أى أنه نتيجة لتباين المقياسين .... المقياس التمييزى للمجموعة

ومقياس التأثير الخارجى فإن المكثف لا يحس بوجود هذا المؤثر الخارجى ولا يستفيد منه ويظل فرق الجهد حول طرفيه فى حدود الصفر .

وهذا ما نسميه فى الهندسة الكهربائية بالمرشح السفلى Low pass Filter ونرسمه كما فى الشكل التالى :



ولنعد الآن لسؤالنا الاجتماعى ، ولنتصور مجتمعنا ممثلاً بخاصيتين :

م .... وتمثل المقاومة الذاتية للتغيير .

س .... وتمثل الفجوة الحضارية .

ولنتصور (ق) ممثلة للتمدين الضاغط علينا من خارجنا المحيط بنا من كل جانب .

هل تحدث ظاهرة المرشح السفلى فى الاجتماع كما حدثت فى الكهرباء .... فإذا كانت (ق) تمثل الصناعة الغربية والتى تتميز بمقاييس زمنية متناهية فى الصغر نتيجة تطورها السريع بينما تتعاون فجوتنا الصناعية مع المقاومة الذاتية للتصنيع حتى يصبح الزمن التمييزى (م س) لأحوالنا الصناعية أكبر بكثير من الزمن المميز للصناعة الضاغطة .... فإننا فى هذه الأحوال لن نتصنع وسيظل فرق الجهد عند طرفى فجوتنا صفراً .

.... أليس هذا ما يحدث الآن ....

وما قلته عن الصناعة يمكن أن يقال عن كل دروب التمدين الأخرى ... وسأفعل ذلك بأذن الله عندما أتعرض لبعضها فى هذا الكتاب .

إننا نتعرض فى مصانعنا لأحدث وسائل التقنية وبين أيدينا أحدث الأجهزة الإلكترونية .... ورغم ذلك فإننا نمر عليها مر السحاب .... لا نعيها ولا تؤثر فى صناعتنا وكأنها لم تكن ....

أليس ذلك دليلاً على صحة هذه النظرية التى طرحناها حول تفاعل المقاييس . والنظريات الاجتماعية شأنها شأن النظريات الطبيعية تقوم أساساً على كم كبير من المشاهدات والنظر فيها لاكتشاف القوانين الحاكمة والتى يمكن بها تفسير كل الأحداث المتفرقة .

ونحن وإن كانت مشاهداتنا تشمل جزء صغير من تاريخنا الحديث إلا أننى أشعر أن إيحاءات هذه النظرية الاجتماعية سوف تكون هامة فى التخطيط لكل فروع التمدين تخطيطاً يقوم على الاستبصار بكل المقاييس الذاتية للإنسان العربى والمقاييس المحيطة للتمدين الضاغط .

لقد عرضت نظرية تفاعل المقاييس فى محاضرة فى جامعة ستانفرد الأمريكية . وكان فى المحاضرة اثنان من رواد الدراسات التى تعنى بالتفاعل بين القيم والمجتمع والتكنولوجيا . أحدهما هو الأستاذ الدكتور فينسنتى (Walter Vencinti) والآخر هو عالم الاجتماع الشهير إليكس أنكلس (Alex Inkeles) مؤلف كتاب « لتكون عصرياً » (To be modern) وبعد المحاضرة سأل الدكتور فينسنتى الدكتور أنكلس عن احتمالية أن تكون هذه النظرية فى تفاعل المقاييس قد طرحت من قبل فى علم الاجتماع فأجاب بالنفى ...

ومن هنا فإن جدية هذه النظرية تدفعنا - كل الباحثين - لاكتشاف مناطق صحتها وتطبيقاتها ....

الفصل الثالث

أفكار فى الشباب والحركة الاصلاحية

فليسمح لى القارىء أن أوجز الأفكار فى هذا الموضوع فى مجموعة من المواقف والحيثيات :

١ - فى خلال القرنين الأخيرين تواجدت تيارات ثلاثة فى محاولات البعث المستمرة .

- تيـــار التغريب .
- تيـــار التــراث .
- تيـــار الأصـــالة .

٢ - ولقد ظلت التيارات الثلاثة تتفاعل فى أروقة المثقفين فقط بجهود فردية أو جماعية صغيرة أو استعمارية أحياناً حتى ظهرت حركة تحمل تيار الأصالة فوق جناح العبقرية والتفانى والقدرة الرهيبة على الاتصال المتمثلة فى شخصية حسن البنا هذا العقل الشمولى الجبار .... والروح المتجردة لله .... والفهم الكامل لطبيعة العصر ولأهمية المعاصرة ....

٣ - ولقد اكتسح تيار الأصالة كل التيارات الأخرى جماهيرياً وكاد أن يقتنص الطبقة المتوسطة جميعها وأن يمد سلطانه إلى طبقات اجتماعية أخرى فى مصر والعالم العربى .

٤ - امتداد تيار الأصالة فى الجيش يصل إلى السلطة فى مصر فى يوليو ١٩٥٢ .

٥ - توقف تيار الأصالة فى نهاية ١٩٥٤ على يد رجاله الذين وصلوا إلى السلطة عام ١٩٥٢ .

٦ - تحول تيار الأصالة إلى روافد هنا وهناك سرعان ما فقدت الأصالة وانتهت إلى السكون .

٧ - هل كان الغرب فى هذه المعركة التى أدت إلى اختفاء تيار الأصالة .... هذا على كل حال احتمال يدعيه الغرب فى كتاباتهم عن دور المخابرات الأمريكية فى الشرق الأوسط ولم تنكره بعد أجهزة الأمن فى بلادنا ...

٨ - وهل ما زال الغرب فى المعركة .... محاولاً إحباط أى تيار للأصالة باستخدام نفس السلاح ....

وهل هذه الدوامات التى نراها من حين لآخر هى من صنع يديه فلا يكاد يخطىء الباحث أن نموذجاً خبيثاً يتكرر منذ سنوات فى عالمنا العربى .... نموذج يبدأ بظهور شخصية ذات صفات قيادية تحمل فكراً أعرجاً مما هو متراكم فى كتب التراث .... ثم التفاف مجموعات من الشباب حول هذا الفكر الأعرج .... منهم من هو مؤمن ومنهم من هو مشبوه .... ثم نمو التيار لحجم حرج .... فتوريط التيار عن طريق المشبوهين فى داخله وحمق أفكاره فى أحداث حمقاء بالغة الحماقة .... فانقضاض أجهزة الأمن على التيار وإجهاضه .

٩ - أى خراب هذا الذى يحدث بضياع آلاف الشباب فى هذه الدوامات المهلكة .... شباب جميل مستعد للفداء متأهب للبناء يقع كل يوم فى مصيدة التيارات الدوامية التى نصبها الشيطان وعملاءه له فيضيع على أمته كنز عظيم كان يمكن أن يكون أداة إصلاح وعدة بناء ....

١٠ - الرغبة المقدسة فى الإصلاح والتى تملأ قلب كل مسلم تتحول بخبث شديد إلى أداة هدم عند الصفوة الفدائية من شباب الأمة ...

١١ - هل يستطيع المثقفون فى هذه الأمة وعقلائها أن يجدوا نموذجاً حركياً شرعياً يجمع هذه الرغبات المضطرمة للإصلاح فى صدور الشباب ويدفع بها إلى قبلة المصلحة العليا للأمة .... أم نظل واقفين نتفرج على المعارك المتصلة بين أجهزة الأمن وهذا الشباب الذى أصبح خطراً على الأمن ....

١٢ - وهل مهمة الأمن ورجاله صياغة هذا النموذج .... أم أن هذا هو مهمة المفكرين والمثقفين .

١٣ - ألا يجدر بمثقفينا ومصلحينا طرح قضية صياغة العقد الاجتماعى فى إطار قيمنا وفى ضوء الرغبة فى المعاصرة . وسأحاول أن أضع تصوراً مبدئياً للبحوث المرجوة فى مجال هذا العقد الاجتماعى بعد قليل .

١٤ - هل التفسير الخاطىء للتاريخ هو مصدر من مصادر تخبط الفكرة الإصلاحية فى عقول الشباب .... أحسب ذلك .... وسأحاول أن أقدم هيكلاً جديداً لتفسير جديد .... أسميته التفسير الحضارى للتاريخ .

الشـــباب والعقد الاجتماعى والإنتاجية

مقدمـــة :

لا نحسب أن موضوعاً ما يدعو إلى تداعى الدارسين إليه تأملاً وبحثاً مثل هذا الموضوع الهام الخطير .

ذلك أننا نؤمن أن غياب الفهم لطبيعة العقد الاجتماعى بين الإنسان والكيان الاجتماعى الذى يعيش فيه ما زال يسبب أخطاراً جسيمة فى كل حركة يخطوها هذا الإنسان فى الحياة .

وفى المجتمعات التى ما زالت فى أولى خطواتها نحو الحضارة المعاصرة مثل معظم الشعوب الإسلامية يلاحظ الإنسان أن طاقات الشباب تضيع هدراً نتيجة للتحرك العشوائى الذى يقوم أساساً على فهم خاطىء لما يجب أن يكون عليه العقد الاجتماعى بين الإنسان ومجتمعه حكاماً ومحكومين .

إن العقد الاجتماعى السائد فى عقول الغالبية العظمى من شبابنا عقد تطغى عليه ظاهرة « التطفيف الاجتماعى » حيث تشترط مثاليات عظيمة فى الغير ويسمح

بتفريط شديد فى الذات .... ومن هنا يبدأ الخلل فى المعادلة الاجتماعية التى تحكم علاقة الإنسان بمجتمعه سواء كان فى القاع أو كان فى القمة .

ويبدو أن ظاهرة التطفيف الاجتماعى ظاهرة تاريخية فى مجتمعاتنا لها جذور فكرية نحسبها مدمرة .

إن علاقة الإنسان بالكيان الاجتماعى الذى يعيش فيه تحددها عواطف وقيم وقوانين مكتوبة وغير مكتوبة . وتفرض هذه العلاقة سلوكاً قومياً على أفراد المجتمع فى مواقفهم المختلفة وتحدد وسائل التغيير المثلى وطرائق الإصلاح الجدية مع إدراك أن هذه الوسائل وتلك الطرائق تخضع لظروف العصر وتتغير بتغير الزمان والمكان .

فالفكر الإسلامى الذى تجاوز القصد فى تصوره للعقد الاجتماعى يصبح فكراً هداماً ولا تغنى عنه حينئذ نية الإصلاح ورغبة الفلاح .

ومن المنزلقات فى طريق الفكر الإسلامى المعاصر فى بلادنا إسقاط مفاهيم العقد الاجتماعى فى فترة حضارية سابقة على واقعنا المعاصر وذلك نتيجة تفسير خاطىء للتاريخ لا يربطه بالدورات الحضارية التى ظهرت معه .

عناصر بحوث العقد الاجتماعى

١ - المسئولية الاجتماعية فى الإسلام (أهدافها - حدودها - وسائل تحقيقها - ضوابطها - سقوطها) .

٢ - تقنين المسئولية الاجتماعية فى تاريخ المسلمين ومدى مطابقته لروح الإسلام .

٣ - مطابقة أهداف المسئولية الاجتماعية والمسئولية الفردية .

٤ - التوازنية الإسلامية فى المسئولية الاجتماعية والمسئولية الفردية .

٥ - درجة « التمكين » والمسئولية الاجتماعية ومعنى التمكين « الذين إن مكناهم

فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »

٦ - دور الفرد ودور الدولة .

٧ - نظرية حول التأثير الفردى فى الكيان الاجتماعى :

* دالة التأثير وحجم المؤسسات فى الدولة .

* دالة التأثير وفعالية المؤسسات فى الدولة .

* التأثير الفردى من فوق .

* التأثير الفردى من تحت .

* ظاهرة الزعيم المصلح فى المجتمعات المختلفة .

* المحصلة الإحصائية للتأثير الفردى فى أنماط مختلفة من المجتمعات .

* الاحتمال الحضارى والإمكان الحضارى فى أنماط مختلفة من المجتمعات .

٨ - العقد الاجتماعى وارتباطه بالتأثير الفردى فى الكيان الاجتماعى .

٩ - التطفيف الاجتماعى كظاهرة مرضية فى العقد الاجتماعى السائد وجذوره التاريخية .

١٠ - محاولة لوضع برنامج شمولى لتصحيح الأفكار السائدة حول العقد الاجتماعى .

١١ - التفسير الحضارى للتاريخ : إسقاط على ظهور الحركات المختلفة فى تاريخ المسلمين وارتباط ذلك بالمرحلة الحضارية .

١٢ - العقد الاجتماعى السائد فى البلاد الإسلامية مقارناً بالعقد الاجتماعى السائد فى المجتمعات الصناعية .

١٣ - ألوان من الحركات الإسلامية المعاصرة ومدى مطابقتها للمنظور الإسلامى فى العقد الاجتماعى .

١٤ - صيغة حضارية للعمل الإسلامى المعاصر مع تأكيد على جوهر الإصلاح المرجو .

التفسير الحضارى للتاريخ

المجتمع الإسلامى يتدفق فى سيره وتنمو فى تياره مشكلات هنا وهناك كلها تدور حول مسائل معينة لا تهتم بصياغة كاملة معارضة وإنما تركز على جزئية بعينها سواء كان ذلك فى الحكم أو فى العقائد .

وينشأ فى هذا الجو جماعات مثل الخوارج ومثل الشيعة وهما جماعتان ظهرتا فى عهد الإقلاع .... ثم بعد ذلك تظهر جماعة المعتزلة والمذاهب الفقهية وهم جماعات عهد العقلانية .... ثم يصل المنحنى الحضارى إلى أقصاه وتبدأ الحضارة فى الإفول .... وتبدأ جماعات الصوفية وغيرها ....

والنقطة الهامة هنا أن هناك دالة تعالق بين نوعية الجماعات التى ظهرت وبين الفترة الحضارية التى ظهروا فيها .

إن هذا الظهور لهذه الجماعات يمكن فى بعض الأحيان أن يكون ظهوراً مَرضَياً أى أنه يمثل انحرافاً حضارياً بينما فى أوقات أخرى يكون هذا الظهور تلبية لحاجة حضارية .

ويمضى المجتمع الإسلامى متجمداً حيث تلقاه رياح الحرارة الأوروبية فتبدأ فى إذابة الجليد من الخارج آخذة طريقها رويداً رويدا إلى قلبه .

وتبدأ هنا جماعات تميز هذه الفترة : فترة اللقاء بين مجتمع متجمد وحضارة باسقة الزروع ....

ومرة أخرى كان ظهور بعض هذه الجماعات ظهوراً مَرضَياً بينما كان البعض الآخر محاولات جزئية للإصلاح .... وهذه الجماعات هى جماعات ما قبل

الإقلاع ....

والحضارة عالمان : عالم الروح وعالم المادة .

وفى البدء تتمثل الحضارة كلها فى عالم الروح ويتجسد عالم الروح فى مجموعة من القيم والمبادىء العظيمة تسكن نفوساً كبيرة لقوم كبار . ثم تبدأ التغذية الطبيعية من عالم الروح لعالم المادة حيث يحاول المجتمع الوليد أن يبنى مؤسسات يقيم بها أود حياته المادية .... مؤسسات سياسية واجتماعية واقتصادية .... وهو يستعين على ذلك بأدوات العصر التى نشأت هنا وهناك .... يستوعبها ويغربلها ويطهرها ثم يستخدمها مع التغذية الروحية لبناء عالم المادة .

ومن شأن هذه التغذية الروحية أن تضعف عالم الروح على حساب تقوية عالم المادة إذا لم ينتبه إلى ذلك وغالباً ما تغفل الشعوب عن ذلك .

وخير لنا فى بدأ هذه الدراسة أن نحدد الألفاظ ما استطعنا .... فمثلاً سنستخدم كلمة الحضارة لتعنى كما أسلفنا النمو الكامل فى عالم الروح وعالم المادة وسنستخدم كلمة التمدين لتعنى نمو عالم المادة وقد يستخدم غيرنا هذه الألفاظ لغير ذلك فهى ألفاظ مائعة فى الاستخدام الأدبى والفلسفى .... وحسبنا هنا أننا حددنا منطلقاتها العامة . والأمر القاصم للحضارة أن يستنزف عالم الروح رويداً رويدا من غير أن يجدد وتعمل أجهزة الحضارة على تجديده .

وفى كثير من الأحيان تتحول الطاقة الروحية الضخمة المتوفرة فى لحظات الفجر إلى طاقة مادية من غير تجديد لهذه الطاقة الروحية وعمل على بقائها . هنا تتحول الحضارة إلى تمدين وتعمل سنن الحياة إلى سحق هذا التمدين الذى لا يملك معه قوة روحية تعمل على بقائه وتجديده .

والتاريخ حتى الآن يعلمنا أن تحول عالم الروح إلى عالم المادة تحول غير عكسى أو على الأقل لم يكتشف حتى الآن وسائل حضارية تجعله غير ذلك . والمنحنى الحضارى الشائع والمعروف بالدورة الحضارية يظهر ذلك بجلاء .

ومن الغريب ونحن نبحث عن مخرج حضارى الآن خلطنا الأمور خلطاً بيناً

فظننا مثلاً أن الأحكام فى الفقه والشريعة هى من عالم الروح ونسينا أنها من عالم المادة بل هى جزء من التمدين الإسلامى القديم استعان بأدوات عصره القديم والتى كانت شائعة بين يديه . ويبدو أن هناك علاقات وقوانين تحكم حركة عالم الروح وعالم المادة كشقين للحضارة وواضح أن عالم الروح ينشأ أولاً وهو ينشىء « تمديناً خاصاً » للرجال الذين يحملونه ولكنه تمدين فى إطار التمدين العام السائد فى المنطقة التى يعيش فيها الرجال الذين يعيش فيهم عالم الروح ومن ثم فتظل « روح » هذا التمدين الخاص هى التى يجب أن تستلهم وليست أشكال التمدين هى التى يجب أن تقتفى . فلم يكن طعامهم اختراعاً جديداً ولم تكن مساكنهم ذات تصميم معمارى مخالف .... ولقد كانوا متحضرين فى إطار التمدين السائد ، وهكذا تظل المهمة فى كل جيل هو التحضر فى ظل تمدين سائد ، ومن ثم تكون هناك مهمتان : التحضر والتمدين أى أن المسلم المعاصر لا يستطيع وقد تحضرت روحه بأخلاق الإسلام وأشواقه أن يزعم لنفسه أنه يستطيع أن يكتفى وأن يتبنى أشكال التمدين فى قرون ماضيات .... أشكالاً فى الزى والمأوى والتعليم والمؤسسات المختلفة .... إن أى محاولة من هذا النوع ستنتهى إلى الفشل المحقق .... وسيغزوها عالم التمدين من كل جوانبها ويمحوها محواً ....

هل نقول أن السباق بين التحضر والتمدين عند المسلمين كان وراء ظهور حركات كثيرة فى التاريخ الإسلامى .... هذا أمر يحتاج إلى بحوث متصلة .

وهل نقول أن ظهور كثير من هذه الجماعات التاريخية كان ظهوراً مَرضياً بينما كان ظهور البعض الآخر ظهوراً صحياً .... هذا أيضاً أمر يحتاج إلى بحوث متصلة .

وخلاصة ما نود أن نقوله أنه يجب إعادة تفسير التاريخ بمتابعة حركة التحضر وحركة التمدين وديناميكية التغيير فيهما والعلاقة بينهما سلباً وإيجاباً .... هذه المهمة هى مهمة المشتغلين منا بعلوم التاريخ .... حتى يصبح التاريخ مصدر إشعاع للإصلاح وليس مصدر هدم فى عقول الشباب ....

ومن التطبيقات الهامة للتفسير الحضارى للتاريخ محاولة فهم لماذا اضمحلت

الحضارة الإسلامية وذهب التمدين الإسلامى . ولن يغنى هنا الحديث عن التتار والمغول والصليبيين .... وما أهلكوه وما دمروه .... فقبل قدومهم كانت شروط البقاء لهذه الحضارة وذلك التمدين قد آذنت بالذهاب .

وعلى أيام ابن خلدون .... بينما فقدت الأمة الإسلامية تمدينها وحضارتها كانت أمم الغرب المسيحى تتأهب لحضارة مرتقبة وتمدين على الأبواب .

ففى المقدمة فى الفصل الثالث عشر « فى العلوم العقلية وأصنافها » وبعد حديث عن أنواع العلوم العقلية يذكر ابن خلدون : (كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الفرنجة من أرض روما وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة متوفرة وطلبتها متكثرة .... والله أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار) .

وفى محاولة لفهم الاضمحلال فى الحضارة والتمدين حاولت أن أضع إطاراً لمجموعة من البحوث حول تاريخ العلوم أحسب أنه لو تفرغ لها بعض الدارسين فى التاريخ فلسوف تعيننا على فهم الأسباب التى أدت بحضارتنا للإفول وبتمديننا إلى الذبول .... فربما كانت أسباب هذا الاضمحلال باقية بيننا دون أن ندرى .... ومن هنا تصبح دراسة التاريخ عوناً لنا فى حاضرنا ومستقبلنا وليست أداة تسلية ومتاع .

وهذا هو هيكل البحوث المقترحة حول تاريخ العلوم والتكنولوجيا فى العالم الإسلامى .

العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية
فى الحضارة الإسلامية

– نشأة العلوم علماً علما – انتشار كل علم وحجم المتجهين إلى دراسته – التاريخ الشخصى والدراسى لبعض مشاهير العلوم الطبيعية – علاقة العلوم المختلفة بالمجتمع – التطور الزمنى لكل علم – الوضع الاجتماعى لعلماء الطبيعيات

وعالم الإنسانيات - موقف علماء الإنسانيات من العلم الطبيعى (مفهوم أشرف العلوم الذى ساد فى الفكر الإسلامى) - تاريخ الترجمة فى العالم الإسلامى وأولوياتها فى العلوم المترجمة .

- الوقف فى تاريخ العالم الإسلامى وأولوياته بالنسبة للعلوم المختلفة - موقف الحكام من العلماء والعلوم المختلفة ومن الحيل الميكانيكية ومن الصناعات والعلم ومن الاختراعات والعلم - المفهوم الشائع للعمل والإبداع .
- الانتشار الجماهيرى للعلوم والصناعة فى الحضارة الإسلامية .
- وسائل الانتشار - معوقات أو مشجعات الانتشار - أى العلوم تنتشر أسرع - وأى الصناعات تنتشر أسرع .

فى ظننا أن هذا الموضوع جدير ببحوث مستفيضة لأنه ربما يكمن وراءه أسباب حقيقية لانطفاء الشعلة الحضارية فى مجالات العلوم الطبيعية - فما أن انتشرت أو جاوزت حدود العالم الإسلامى هذه الشعلة حتى أصبحت كالنار فى الهشيم فى العالم الغربى وسرعان ما انطفأت داخل بلادنا .

لقد كانت العلوم الفقهية تنتشر انتشاراً واسعاً فى أنحاء العالم الإسلامى بينما نجد أن العلوم الطبيعية لا تكاد تتجاوز أصحابها وكأنها من الأسرار الخاصة .

وهنا يجدر بنا أن نراجع طبيعة المناهج التى كانت تسود المؤسسات التعليمية الإسلامية وهل كانت العلوم الطبيعية جزء لا يتجزأ منها أم أنها كانت عارضة عليها تذهب وتجىء . ولا بد من مناقشة أمور ثلاثة فى مسألة الانتشار :

- رغبة صاحب العلم أو الصنعة فى أن ينتشر ما عنده ليفيد به الأمة .
- المناخ النفسى والاجتماعى الذى يجعل فى نفوس الناس رغبة دائمة إلى تعلم هذا العلم أو تلك الصنعة .
- وسائل اتصال تيسر الاتصال بين صاحب العلم أو الصنعة والراغبين فيهما .

فإذا حاولنا بحث هذه الأمور فى تاريخنا وفى التاريخ الأوروبى فى القرون الوسطى فربما استطعنا الإجابة عن السؤال الحائر : لماذا تحولت شعلتنا إلى حضارة فى بلاد غيرنا بينما انطفأت فى بلادنا .

الفصل الرابع

التعليم مخ الحضارة

لا تظهر بوضوح صحة ما طرحناه حول ظاهرة تفاعل المقاييس والرقع الحضارية أشد ما تظهر علانية وجلاء مثل ظهورها فى قضية التعليم .

فلنتتبع هذه الظاهرة تاريخياً حيث ظهرت أول ما ظهرت فى مصر ثم تبعتها أخواتها العربيات حذو النعل بالنعل .

ولننقل هنا اللقاء المؤلم بين الفرسان والمدفعية كما صوره الشاعر صلاح عبد الصبور رحمة الله عليه :

« وكما يحدث فى الحواديت ، أراد علماء أوروبا أن يكشفوا لعلماء مصر عن تقدمهم وذكائهم .... فدعوهم إلى زيارة المجمع العلمى ، ثم أخذوا يعرضون عليهم فنوناً من إبداعهم .... صب أحدهم سائلاً أبيض ، ثم ألقى ببعض السائل الأخضر . فصار - ويا للعجب - أحمر ، ثم أخذ هذا السائل فوضعه على النار فصار حجراً ، ودق هذا الحجر بمطرقة فى يده فسمعت له طرقعة هائلة ودوى عظيم .... وارتجف علماء مصر .... فلما استردوا وعيهم لم يملكوا إلا أن يهرشوا ذقونهم ويستعيذوا بالله من شر السحر والسحرة .

كان مكان هذه الحكاية هى السيدة زينب عام ١٨٠٠ م فى قصر يقوم الآن بحارة تدعى حارة « مونج » تيمناً باسم رئيس أحد الفريقين المتنافسين ، أما الفريقان فقد كان أولهما ... الفريق صاحب البدائع والحيل ، هو فريق علماء الحملة الفرنسية الذين اصطحبهم نابليون بونابرت معه إلى مصر ، أما الفريق الثانى فقد كان فريق « علماء » مصر وأهل الرأى فيها .

أما الذى حكى لنا الحكاية فهو مؤرخ مصر فى ذلك الأوان ... الشيخ عبدالرحمن بن حسن الجبرتى .... أول السلسلة العظيمة من أذكياء المصريين فى عصرنا الحديث .

وقد نقرأ الآن هذه الحكاية ونبتسم عارفين أن الخدعة كانت صغيرة وصبيانية لأنها لا تزيد عن استغلال بعض بديهيات الكيمياء ، وقد نفكر قليلاً فى الماضى ونتأمله فنذكر أن كيميائيى العرب منذ ألف سنة كانوا يعرفون أضعاف هذه الحيل ، وأن جابر بن حيان وتلاميذه .... قد اكتشفوا كثيراً من العناصر وركبوا آلاف المركبات ، وأن صناعة الصيدلة وهى إحدى الصناعات القائمة على الكيمياء كانت من مفاخر الذهن العربى .

ولكننا قد نفكر فى اتجاه آخر ، فنقرن هذه الحادثة بأمثالها مما وقع حين تمت هذه المواجهة الماثلة الدامية ، بين مصر وأوروبا فى العامين الأخيرين من القرن الثامن عشر . التقى الجيشان ... جيش المماليك المصرلية كما كان يدعوهم بعض المصريين وجيش الفرنسيين – كان جيش المماليك أنيقاً رشيقاً ، يلبس أحدهم قميصاً من القطن الناعم الأبيض فوقه ثوب من القماش الهندى الخفيف وفوقه قفطان من حرير مزركش تمتد أكمامه حتى أطراف الأصابع ، ثم كرك بأكمام قصيرة ، وحول رقبته فراء من السمور ، وفوق ذلك كله طيلسان يلف به جسمه جميعه وفى يده سيفه وفى وسطه خنجره ورووا أن مقبض الخنجر الذى كان يحمله أحدهم كان يقدر « بمائتى ألف جنيه »

هذا الجيش من الفرسان .... كان يواجه جيشاً آخر من المدفعية ملابسه متواضعة ، وحركته خفيفة ، وزاده قليل ، حتى أن شيخنا الجبرتى يحدثنا بلهجة مليئة بالعجب عن أن نابليون حيث أراد الخروج إلى بلبيس للاستكشاف لم يصطحب معه طباخاً ، بل لف دجاجتين فى كيس ، وانطلق فى طريقه مع بلوره ....

وحين التقى الجيشان ، قال قائل المماليك : ما لهؤلاء الفرنجة المخنثين والقتال سنمزقهم بسيوفنا ، وقال قائل الفرنسيين : ما لهذا الجيش يخرج إلى القتال كأنه يُدعى إلى وليمة .... سنمزقهم بمدافعنا . وهزمت المدافع السيوف !!

هؤلاء هم العلماء والحكام ، فأين أبناء البلد .... لننتقل خطوة ثانية مع الجبرتى لنراه يقول لنا : أن محمد على بعد عشر سنوات من خروج الفرنسيين ، أراد أن

يحفظ سجلات للضرائب فوضع نظاماً يقضى بأن تكتب باللغة العبرية ، لأن معظم كتابها كانوا من اليهود وهم الذين يجيدون الحساب والتدوين .

هذه هى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر .... لا مجال هنا للحديث عن التهذيم أو التخلف ، لنقل أنها أمة كانت نائمة واستيقظت على هدير المدافع وانهمار القنابل ، حتى الأزهر الشريف لم يعفه الفرنسيون من طلقاتهم حين اعتصم به العامة من العلماء ، الذين « حين وقع عليهم القنبر ورأوه ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، صاحوا : يا سلام .... من هذه الآلام ، يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف » والرواية هنا للجبرتى رحمه الله .

ولنقل أنها أمة كانت قد لفت خيوط شرنقتها البالية حول نفسها قانعة برزقها يأتيها رغداً أو غير رغد ، مستسلمة إلى تيار الأقدار الساكن ، طبقة حاكمة من المماليك ، وأعوان لهم فى جمع المال من أبناء الطوائف المختلفة ومجموعة من العلماء تدرس الفقه والأصول ، وفلاحون يعملون كثيراً ويأكلون قليلاً ولا يتعلمون أبداً ..

هل هناك تعبير عن انحطاط التعليم وعزلته عن الحياة أوضح من هذه القصة التى رواها الجبرتى من اضطرار محمد على أن يكتب سجلات الضرائب باللغة العبرية لأن معظم كتابها من اليهود .

بل أين كان التعليم المتمثل فى الأزهر وكتاتيبه ومعاهده من انحطاط اللغة المستخدمة فى التخاطب بين المصريين لدرجة أن مؤرخين عظام أمثال ابن إياس والجبرتى استخدموا اللغة العامية فى كل كتاباتهم .

وأين كان هذا التعليم من العقائد الشعبية السائدة فى المجتمع والتى يرسخها فى العقول خزعبلات الطرق الصوفية المنتشرة فى كل البلاد ....

لا جدال أنه تعليم متخلف بالقياس لعصره .... لا يفى بأبسط الحاجات الحضارية وأقصى ما أعطاه هو مجموعة من القضاة والوعاظ وحفظة التراث ....

ورغم ذلك فإن الله قد هيأ لهذه الأمة بعض العقول المستنيرة التي خرجت من هذه التربة الثقافية الجامدة ....

فقبل قدوم الفرنسيين في عام ١٧٩٨ م بحوالي ٥٠ عاماً كانت قد بدأت في مصر حركة ذاتية تحاول البعث والنهضة . والتاريخ يروى لنا محاولات الشيخ حسن الجبرتي (والد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي) في مجال الرياضيات والفلك والشيخ حسن العطار في مجال اللغة والشعر والشيخ مرتضى الزبيدى في مجال اللغويات والعلوم الدينية . ولم تكن هذه الصحوة وليدة ضغط خارجي وإنما كانت صحوة ذاتية صاحبتها في هذه الفترة انتشار حرف كثيرة في شواطىء مصر جاءتها من أوروبا عن طريق الإيطاليين واليونانيين الذين كانوا يتنقلون بين بلادهم وبين شواطىء البحر الأبيض في سهولة ويسر وبدوافع شخصية بحتة لا تمت لأى ظاهرة استعمارية بصلة .

هل كانت هذه الصحوة الضئيلة هي إرهاص بفكر جديد يكاد يتدفق ....

أجل .. ولقد كان

فما رحل الجنود الفرنسيين من مصر حتى كان هناك إحساس سائد بأهمية البعث على أسس جديدة ومن منابع جديدة .... إحساس يتبناه رجل عظيم مثل الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر ومعه تلاميذه ومريدوه على رأسهم إمام التعليم الحديث في العالم العربي شيخنا رفاعة الطهطاوى .... إحساس مثل هذا لا بد أن يؤدى إلى شيء عظيم لو عطف عليه سلطان يؤمن به وأعطاه القوة والسند ....

وهذا ما كان .... فلقد كان محمد على الوالي العثماني على مصر « من أكثر الناس وعياً للدرس الذي ألقته الحملة الفرنسية على مصر ولكن بطريقته الخاصة .... طريقة الجندي العثماني ، الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، الحاكم المطلق الإرادة والتصرف الذي يضع كل شيء في خدمة أغراضه الحربية والسياسية »

- هذا الجندي العثماني الأمي في سعيه لبناء قوة حربية « ارتقب » للغالبية العرفي طريقة للمعاصرة دون أن يدرى » ولو وفقه الله لشيء من العدالة ، على ما فيه من

العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة .... لكان أعجوبة زمانه وفريداً فى أوانه » كما يقول الجبرتى رحمه الله وما كان لمحمد على أن يحقق معظم أهدافه فى بناء القوة الحربية لولا هذه الصحوة التى تحدثنا عنها والتى تمثلت فى أيامه فى الاستعداد للتغيير عند شيخ الأزهر نفسه الشيخ حسن العطار الذى روى عنه على مبارك فى خططه التوفيقية أنه قال :

« إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ، وكان يتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة الفرنساوية من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة .

ورغم هذا الفكر المستنير والرغبة فى الإصلاح التى تملأ صدر الشيخ حسن العطار فإنها لم تترجم إلى أى خطة لإصلاح التعليم فى الأزهر .... وبقى الأزهر على حاله .... ومضى تلميذ الشيخ حسن العطار الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى وزملاءه النجباء والذين عادوا من فرنسا فى وضع بذور جديدة لنوع جديد من التعليم يختلف تماماً عن هذا التعليم السائد فى الأزهر ويتجاوزه إلى السبق فى تلبية مطالب الأمة .

فمنذ البدء فى عمليات بعثنا الحضارى الحديث نرى بوضوح ظاهرة ازدواجية التعليم ، فلقد مضى محمد على باشا فى طريقين متكاملين .

أولاً : سعى إلى جلب خبراء أوروبيين فى مجالات الاقتصاد والتعليم مهمتهم إدارة أعمال الدولة وتطوير نظم الاقتصاد وإنشاء نظام تعليمى حديث والقيام بمهام التدريس فى المدارس الأميرية الجديدة وتدريب المصريين على مختلف الأنشطة الصناعية والزراعية والطبية .

ثانيا : أرسل البعوث التعليمية إلى أوروبا للتدريب على مختلف المهارات العلمية اللازمة لتسيير شئون الدولة والجيش يعامل أعضائها كجنود تحت الملاحظة العسكرية الصارمة ويعودون بعدها للحلول محل الأوروبيين فى مناصب الدولة والجيش والتعليم .

وهكذا أنشأت المدارس المختلفة المتخصصة فى مجالات الطب والهندسة والزراعة والمدارس الابتدائية حيث قام الأوروبيون بكل المهام التعليمية فى المدارس المتخصصة حتى عام ١٨٤٥ كما أشرفوا على العمل فى المدارس الابتدائية الأميرية لفترة طويلة . ولقد واجهت هذه السياسة التعليمية مشكلة لغة التعليم والتخاطب بين الطلبة والأساتذة ومن هنا نشأ الاهتمام بالترجمة حيث أنشأت مدرسة الألسن عام ١٨٣٥ لتدريب طبقات من المترجمين على الترجمة الفورية فى فصول الدراسة وعلى عملية إعداد المراجع التى يستعملها الطلبة . وكان لتلك المدرسة (مدرسة الألسن) وكذلك للمطبعة الأميرية التى أنشأت عام ١٨٢٧ م أعظم الأثر على كل أنشطة التعليم والثقافة فى مصر ، وكان نتاج ذلك فى هذه الفترة ظهور معاجم عربية/ فرنسية – إيطالية – إنجليزية فى مجالات الطب والهندسة والعلوم التطبيقية وتكوين رصيد كبير من المصطلحات الفنية العربية .

أين كان التعليم فى الأزهر وكتاتيبه من هذا كله
لقد ظل هذا التأثير الحديث بعيداً عن الأزهر وأروقته ....
منحصراً فى نطاق المدارس والكليات ....

ولقد عمل محمد على على إضعاف تأثير الأزهر على أنشطة التعليم فى مصر وذلك بفرضه ضرائب على ممتلكات الأوقاف ....

إن محمد على فى الواقع قد أحدث ثورة على الأزهر لم تظهر نتائجها إلا بعد الثورة المصرية فى يوليو عام ١٩٥٢ . فلقد أغفل الأزهر تماماً فى بنائه لنظام تعليمى جديد ، وأدى هذا النظام الجديد إلى ظهور طبقة جديدة من موظفى الحكومة . وكان للمدرسين والفنيين والعلماء والإداريين الذين استقدمهم الباشا دور كبير فى تشجيع اتجاهات هذه الطبقة المصرية الجديدة لتقليد أوروبا .... هذا رغم أن الكثير من طلبة هذا التعليم الحديث فى المدارس الأميرية الابتدائية والثانوية والفنية والحرفية ومدرسة الألسن وأعضاء البعثات التعليمية إلى أوروبا كانوا من طلبة الأزهر السابقين أو من خريجيه .

هذه الطبقة الجديدة والتى لم تعد تتصل بالأزهر ونظامه التعليمى بسبب أصبحت هى القيادة فى الفكر والثقافة فى المجتمع المصرى بديلاً لعلماء الأزهر وأصبحت كذلك هى الطبقة الثرية الأرستقراطية التى يتطلع إليها الذين لم يدركوها ....

ولنعد لسؤالنا أين كان الأزهر من ذلك كله

ولماذا لم يشارك فى بناء الدولة المصرية على أسس إسلامية

ولماذا تركه الباشا قائماً .... بينما بنى بجواره نظاماً عصرياً متألقاً ظل يجذب إليه صفوة الطلاب يوماً بعد يوم .... حتى ليأتى يوم فى سبعينات القرن العشرين يضطر فيه الأزهر أن يقبل راسبى الإعدادية العامة ليلتحقوا به بعد أن نضب معينه من الطلاب ولم يعد يقبل عليه أحد ....

ولا نكاد نعرف أيضاً لماذا لم يعد طلاب الأزهر وخريجيه الذين التقطهم النظام الحديث إلى إصلاح الأزهر وصهر النظامين معاً فى نظام واحد يغنى الأمة عن تشتتها الظاهر والباطن بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها ...

ولماذا لم يدرك أهمية ذلك رجل عظيم مثل رفاعة رافع الطهطاوى والذى مضى فى طريقه يبنى لمصر نظامها التعليمى الحديث

بل لماذا لم يحاول الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر نفسه والذى نقلنا عنه رغبته الجارفة فى أن يتعلم المسلمون العلوم العصرية .... لماذا لم يحاول وهو شيخ الأزهر أن يقوم بتجربة فى ذلك ويدفع بالأزهر ذاته لإصلاح التعليم فى معاهده وأروقته .

ولننظر إلى ما آل إليه التعليم فى عهد اسماعيل .

لقد زاد عدد الأوروبيين فى مصر من عدة آلاف عام ١٨٦٠ م إلى أكثر من ١٠٠ ألف وكان معظمهم يعملون فى مجالات التعليم والاقتصاد وكان لهذا الوجود المكثف تأثير شديد فى عمليات التغريب وتشريعها ، فلم يكن هؤلاء الأوروبيون جنوداً قدموا مع جيش مستعمر وإنما كانوا « أصدقاء » قدموا للعمل على بناء مصر الحديثة ... ومن ثم فلم تكن هناك فى نفوس الطبقة المصرية المحتكة بهم أى عوائق

شعورية تحول دون التقليد والمحاكاة وشجع على ذلك الخديوى اسماعيل نفسه الذى قيل أنه قال ذات يوم أن مصر لم تعد جزءاً من أفريقيا وإنما أصبحت جزءاً من أوروبا . وفى عهده التزم المتعلمون تعليماً حديثاً بالزى الأوروبى وبذلك بدأت ازدواجية الزى بين المتعلمين منذ ذلك الحين ...

وكان من أهم نتائج فترة حكم إسماعيل الثقافية ما يلى :

١ – زيادة تأثير الفرنسية فى مجال الإدارة والتعليم حتى أن ٧٥ عاماً من الاحتلال البريطانى لم تكن كافية لإزالة التأثير الفرنسى على لغة تخاطب الطبقة المتعلمة فى مصر .

٢ – السماح للهيئات التبشيرية الكاثوليكية بالتواجد وممارسة النشاط فى مصر كما أنه سمح بل شجع تلك الإرساليات على إنشاء حوالى ٦٠ – ٧٠ مدرسة ابتدائية وثانوية .

٣ – السماح للأقليات القبطية واليونانية والأرمنية واليهودية بإنشاء العديد من المدارس التى تلقت الكثير من المساعدات الحكومية فى شكل أراضى وأموال . وكان خريجوا تلك المدارس يمثلون طبقة متشبعة بالنظريات الأوروبية للحياة ومن ثم كانت مواقفهم فيما تولوه من مناصب بعد ذلك متعارضة مع التقاليد الثقافية المتمثلة فى الأزهر فى تلك الأيام .

٤ – مضاعفة ميزانية التعليم من ٦٠٠٠ جنيه إلى ٧٥٠٠ جنيه .

٥ – إرسال ١٧٥ مبعوث إلى أوروبا .

٦ – إنشاء العديد من المدارس والمعاهد والكليات المتخصصة لتخريج المحامين والمهندسين والفنيين واللغويين والمدرسين والعمال المهرة وكذلك إنشاء الجمعيات العلمية لنشر الثقافة وإنشاء المكتبات مثل دار الكتب والأكاديميات .

٧ - إنشاء كلية دار العلوم لتخريج مدرسين للغة العربية لسد احتياجات المدارس الابتدائية والثانوية والتى لعبت دوراً أساسياً فى إعادة إحياء الدراسات العربية والأدب العربى فى الخمسين سنة التالية .

٨ - إعادة فتح مدرسة الألسن والتى أصبحت أول مدرسة لتدريس القانون الوضعى العلمانى عام ١٨٨٦ تحت إدارة القاضى الفرنسى فيدال ومنها تخرج الرعيل الأول من القضاء والمحامين المصريين الذين قادوا مصر فى مجال الدراسات القانونية .

٩ - إنشاء أول مدرسة للفتيات (١٨٧٣) وحيث بلغ عدد الطالبات عند افتتاحها ٤٠٠ طالبة . ووضع تعليم الفتيات تحت الإشراف الحكومى بعد أن كان يتم بصورة فردية فى المدارس الأوروبية وتم توصيله مع النظام التعليمى العام .

١٠ - توحيد مناهج الكتاتيب وتحقيق مركزية التحكم فى التعليم .

لعل القارىء يدرك الآن أنه بنهاية عهد إسماعيل كان تيار التعليم الحديث وما أحدثه من تغريب قد تعمق فى التربة المصرية العليا وأصبحت هذه التربة تحمل فى جنباتها رافدين متميزين مختلفين فيما بينهما اختلافاً مبيناً : رافد التعليم الحديث ورافد التعليم الأزهرى العتيق .

وكان رافد التعليم الحديث قد أحاط بقوم أصبحوا هم القيادة والريادة بينما ظل التعليم الأزهرى ثابتاً فى مواقعه التقليدية فى القرى والنجوع .... متردداً خائفاً فى المدينة التى علا فيها ضجيج الحياة الجديدة بآدابها وعلومها وطبها وهندستها .... تبلور سريع حاد بين الحديث والقديم .... ومعركة صامتة غير متكافئة يفقد فيها كل يوم الأزهر ومعاهده .... يفقدون الطالب كما يفقدون مواقع الأقدام فى مجتمع بدأ يتطلع لهذه الطبقة الجديدة من المصريين لتأخذ بيديه فى دروب الحضارة الحديثة .

حتى طلبة الأزهر أحاط بهم الطوفان وبدأو يتصلون أو يودون أن يتصلوا بهذا الرائد الجديد بسبب من الأسباب .... واقرأ إن شئت أيام طه حسين لتدرك بعض الذى كان يضطرم فى صدور كثيرين منهم . ولنقرأ معاً هذه الكلمات من كتاب الأيام (الجزء الثالث) .

« كان الفتى يرى حياته فى الجامعة عيداً متصلاً ، كما كان يراها غيره من الطلاب ولكنها كانت بالقياس إليه عيداً تختلف فيه ألوان اللذة والغبطة والرضا والأمل . كانت تخرجه من بيئته تلك الضيقة المغلقة فى الأزهر ، وفى حوش عطا أو درب الجماميز إلى بيئة أخرى واسعة لا حد لسعتها ، فهى كانت تتيح له أن يملأ رئتيه من الهواء الطلق حين يسعى إلى الجامعة وحين يعود منها ، وأن يملأ عقله من العلم الطلق الذى لا يقيده تحرج الأساتذة الأزهريين فيما كانوا يلقون من الدروس ، ولا يفسده الإسراف فى القنقلة والجدال حول هذا اللفظ أو ذاك . وإضاعة الوقت فى الإعراب حين لا يكون بين الدرس وبين الإعراب صلة ، وكانت هذه البيئة تتيح له كذلك علماً يخلق نفسه خلقاً جديداً لا يتصل بالنحو ولا بالفقه ولا بالمنطق ولا بالتوحيد ، وإنما يذهب به مذاهب مختلفة فى الأدب وفى ألوان من التاريخ لم يكن يقدر أنه سيعرفها فى يوم من الأيام .

ولم ينس الفتى يوماً خاصم فيه ابن خالته الذى كان طالباً فى دار العلوم ولج بينهما الخصام . فقال الدرعمى للأزهرى ما أنت والعلم ! إنما أنت جاهل لا تعرف إلا النحو والفقه ، لم تسمع قط درساً فى تاريخ الفراعنة ! أسمعت قط اسم رمسيس أو أخناتون !

وبهت الفتى حين سمع هذين الإسمين ، وحين سمع ذكر هذا النوع من التاريخ . واعتقد أن الله قد كتب عليه حياة ضائعة لا غناء فيها ، ولكنه يرى نفسه ذات ليلة فى غرفة من غرفات الجامعة يسمع الأستاذ أحمد كمال رحمه الله يتحدث عن الحضارة المصرية القديمة ، ويذكر رمسيس وإخناتون وغيرهما من الفراعنة ، ويحاول أن يشرح للطلاب مذهبه فى الصلة بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغات السامية ومنها اللغة العربية .

ويستدل على ذلك بألفاظ من اللغة المصرية القديمة يردها إلى العربية مرة وإلى العبرية مرة وإلى السريانية مرة أخرى . والفتى دهش ذاهل حين يسمع كل هذا العلم ، وهو أعظم دهشة وذهولاً حين يلاحظ أنه يفهمه ويسيغه فى غير مشقة ولا جهد .

وهو يعود إلى بيته ذلك المساء وقد ملأه الكبر والغرور ولا يكاد يلقى ابن خالته حتى يرفع كتفيه ساخراً منه ومن دار علومه تلك التى كان يستعلى بها عليه .

ويستطرد طه حسين إلى أن يقول :

« وينفق الإجازة كلها مفكراً فيما سمع ومشوقاً إلى ما سيسمع فى العام المقبل ومتسائلاً عمن يبقى من الأساتذة الذين عرفهم ومن يدعى من أساتذة لم يعرفهم ثم لا يلبث أن تستأثر الجامعة بعقله كله وجهده كله وأن تشغله عن كل شيء آخر . فقد أقبل أساتذة جدد ملكوا عليه أمره واستأثروا بهواه . فهذا الأستاذ كارلو نالينو المستشرق الإيطالى يدرس باللغة العربية تاريخ الأدب والشعر الأموى.وهذا الأستاذ سنتلانا يدرس بالعربية أيضاً وفى لهجة تونسية عذبة تاريخ الفلسفة الإسلامية وتاريخ الترجمة خاصة . وهذا الأستاذ ميلونى يدرس باللغة العربية كذلك تاريخ الشرق القديم ويتحدث إلى الطلاب عن أشياء لم يتحدث عنها أستاذ قبله فى مصر . فهو يفصل تاريخ بابل وآشور ويذكر الكتابة المسمارية ويتحدث عن قوانين حامورابى ، والفتى يفهم عن هؤلاء الأساتذة كل ما يقولون ، لا يجد فى فهمه التواء أو عسراً . وهو لا يكره شيئاً كما يكره انتهاء الدروس ولا يتشوق إلى شيء كما يتشوق إلى ما سيستقبل منها .

وهذا أستاذ ألمانى هو الأستاذ ليتمان ، قد أقبل يتحدث إلى الطلاب عن اللغات السامية والمقارنة بينها وبين اللغة العربية ثم يأخذ فى تعليمهم بعض هذه اللغات . وإذا بالفتى يخرج من حياته الأولى خروجاً يوشك أن يكون تاماً لولا أنه يعيش بين زملائه من الأزهريين والدرعميين وطلاب مدرسة القضاء وجه النهار وشطراً من الليل ولكن عقله قد نأى عن بيئته هذه نأياً تاماً ، واتصل بأساتذته أولئك اتصالاً متيناً ....

كانت هذه أيام طه حسين فى أول عهد مصر بالجامعة فى أوائل هذا القرن .... وكان تيار التغريب شديد العنفوان .... فمصر الآن محتلة بالإنجليز .... ومقاليد الأمور بأيديهم بعد أن أجهضوا الثورة العرابية التى تجمعت فيها معظم العناصر الوطنية أزهريين وغير أزهريين .

وأنا لا أكتب بحثاً فى التاريخ وإنما أريد أن اتتبع الروافد الثقافية فى حياة العرب المعاصرة لندرك أين مواقع أقدامنا . فبعد الاحتلال البريطانى أهملت الدولة التعليم وانخفضت ميزانيته ووصلت نسبة الأمية فى أواخر القرن الماضى إلى ٩٥٪ واقتصر هدف التعليم على تخريج موظفين للدولة .

وفى عام ١٩٢٥ تقررت مجانية التعليم فى الكتاتيب (التعليم الأولى) وتقرر أن يصبح التعليم الابتدائى إلزامياً لكل الأطفال ولكن نقص عدد المدارس حال دون تحقيق هذا الهدف .

وفى عام ١٩٥٠ م تقررت مجانية التعليم الثانوى مما كان له أكبر الأثر فى زيادة الضغط على المدارس المحدودة العدد والإمكانيات .

وفى عام ١٩٥٦ تقررت مجانية التعليم فى الجامعة مما شجع الإقبال على الجامعات بصورة انفجارية ، بينما كانت نسبة الأساتذة للطلاب ١/٧ عام ١٩٢٥ أصبحت ١/٦٠ منذ عام ١٩٦١ .

ولقد شهدت الثلاثينات من هذا القرن محاولات حكومية للإقلال من نفوذ الإرساليات الأجنبية ولقد صدر قانون عام ١٩٤٠ م يشترط تدريس اللغة العربية والدين الإسلامى والتاريخ الإسلامى لطلبة تلك المدارس وفى عام ١٩٦٠ م صدر قانون بتأميم كل المدارس الأجنبية حيث أشرفت وزارة التربية والتعليم على إدارتها منذ ذلك التاريخ فى محاولة لإزالة الانفصام الذى نشأ بين خريجى هذه المدارس وخريجى المدارس القومية .

وليسمح لى القارىء أن أكتفى بهذا القدر من التاريخ لنحاول رؤية الواقع ثم تحليله ثم محاولة تصحيحه .

أما الأزهر فقد غمره الطوفان ، فقد الطالب ومن ثم فقد الأستاذ ولم يفرق الأزهر بأسباب قوانينه الجديدة فى الستينات وإنما بدأ الفرق يوم تجاوزه محمد على باشا وأقام نظاماً للتعليم على أسس جديدة ... أى أنه أغرقه بالبديل المبهر الذى يأخذ بالأبصار وأغرقه بواقعه الجامد الذى لم يستطع أن يقدم للمجتمع رجالاً قادرين على كتابة سجلات الضرائب فى أيام محمد على فاضطر أن يكتبها بالعبرية لأن معظم القادرين على كتابة هذه السجلات كانوا من اليهود .

وفى محاولة البقاء يتشبث الأزهر بقش المناهج المستحدثة فى إنسانيات التعليم الغربى يرقع بها بعض مناهجه من غير إصالة ولا هدى .

ولا أعنى هنا الكليات الجديدة التى أضيفت لجامعة الأزهر مثل الطب والهندسة والتجارة فهذه كليات عادية ذات مناهج غربية لا علاقة بها بالمناهج التقليدية فى الأزهر .

وإنما أعنى ما أضيف إلى مناهج كلية أصول الدين والشريعة واللغة العربية من مناهج وأسماء ....

فأين الأزهر من الدراسات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وماذا قدم ....

وأين موقف خريجيه من القيادة الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية ! ....

بل وأين هو من الآداب والفنون على تنوعها ....

فإذا نحن قسناه بخريجيه ودورهم فى المجتمع نكون قد قسناه من زاوية هامة وعملية .... ونستطيع دون تردد أن نقول .... لقد خفت موازينه ....

ولقد نضب رافده شيئاً فشيئاً ....

ولا بد من مخرج للدراسات الإسلامية فى إطار تعليم موحد لا ازدواجية فيه ....

فالدراسات الإنسانية فى جامعاتنا هى من صميم المهمة الاجتماعية للدراسات الإسلامية ....

وإلا فماذا بقى من دور للدراسات الإسلامية إذا نأينا بها عن الاجتماع والاقتصاد وعلوم النفس والسياسة .... وما مهمة الدين فى الحياة إذا لم تكن إصلاح النفس والمجتمع وأحوال الناس عامة . !

وما هى مهمة الواعظ الاجتماعية إذا كنا نخرج من معاهد الخدمة الاجتماعية رواداً للإشراف الاجتماعى !

وماذا بقى من مهمة لهذا الواعظ غير خطبة الجمعة يقولها ويمضى !!

وهل نريد أن يستمر هذا الحال حتى يصل إلى ما وصلت إليه الأمور فى الغرب فى يوم الأحد من انصراف عن الذهاب إلى الكنائس حتى لتعلن بعض الكنائس – ترغيباً للناس أن يحضروا بسياراتهم ولا يبرحوها خلال استماعهم الميكروفونات إلى المواعظ التى لن تستغرق إلا خمسة عشر دقيقة (Drive in Church)

إننى لا أفقه أبداً الفرق بين مهمة المشرف الاجتماعى ومهمة الوعاظ والتى أراها مهمة واحدة ...

لقد كانت الازدواجية أو التعددية فى نظامنا التعليمى ظاهرة طبيعية تخضع لما طرحناه من قبل عن تفاعل المقاييس فالأزهر بمقاييسه العتيقة ما كان ليتفاعل صحياً مع الوافد الفتى .... فتقوقع على نفسه حتى أدركه ما أدركه من عوامل الهدم والتعرية .... سنة الله فى الحياة ولن تجد لسنة الله تبديلاً ....

واليوم وقد أدركنا أن الازدواجية فى التعليم تكاد تسلمنا لهلاك محقق فإننا لا بد أن نمحوها من حياتنا محواً ولنتعلم من الإسلام إصراره على استقبال قبلة واحدة فى كل صلاة ولكل المسلمين فى كل أنحاء الأرض ....

« قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها »

وحسبنا ما قلناه عن الأزهر ولننظر ما بين أيدينا من التعليم المدنى فى المدارس والجامعات والمعاهد .

فعندما تحدثت عن توحيد التعليم لم أكن أعنى أن يهلك الأزهر من أجل هذا التعليم المدنى القائم بين أيدينا وإنما أردت أن نجد طريقاً قيماً بين جمود الأول وشذوذ الآخر .... وهذا ما نفيض فيه بإذن الله .

ولنذكر أن المؤسسات التعليمية فى الغرب والتى نترسم خطاها فى تعليمنا المدنى ما هى إلا إفراز اجتماعى يؤثر بدوره على المجتمع ويتفاعل معه ديناميكياً مع وجود فارق زمنى يطول أو يقصر فى هذا التبادل التأثيرى خلال قنوات التأثير المختلفة .

فالجامعات فى الغرب تحاول لاهثة أن تغير وتبدل فى مناهجها لتلاحق عالم الصناعة المتسارع حتى تعد طالباً قادراً على التفاعل مع التكنولوجيا المتسارعة فى خطاها .... ورغم ذلك فإن الثورة الأخيرة فى تكنولوجيا المايكرو إليكترونيك والتى أدت إلى صنع رقيقة صغيرة لا تزيد مساحتها على $\frac{١}{٤}$ سم^{٢} بينما تحمل فوقها ما يزيد على مليون ترانزسيستور . هذه الصناعة التى أحاطت حتى بمخترعيها فلم يعودوا قادرين على التنبؤ بما وراء الأكمة فى المستقبل القريب .... تعتبر سابقة لكل مناهج الجامعات فى الولايات المتحدة حتى ليقول آدم اسبورن مؤلف « أنها تتضخم .... الثورة الصناعية التالية :

adam Osborn "Running Wild, the next industerial revolution."

إن كل أقسام الهندسة الكهربائية فى الجامعات لتقف متخلفة سنوات عديدة خلف هذه الصناعة .

كما أن هذه الجامعات لم تسهم بأى قدر يذكر فى تطوير أو استعمال صناعة المايكرو إليكترونيك ويبدو أن هذا الموقف لن يتغير كثيراً فى المستقبل القريب ....

إن هذا التشاؤم من قِبَل الدكتور أسبورن تشاؤم نسبى فالصناعة التى يتحدث عنها والتى يتم معظمها فى وادى السليكون (وهى المنطقة الواقعة بين سان

فرانسيسكو وسان هوسيه .... وأطلق هذا الاسم لأن مادة السليكون هي المادة الأساسية في هذه الصناعة .... وبالطبع لم يطلق هذا الاسم جغرافياً) هذه الصناعة تحيط بها مجموعة من الجامعات العظيمة منها جامعة ستانفرد وجامعة بيركلي وفيهما أعظم الأقسام الكهربائية في العالم .

وأذكر وأنا أعمل أستاذاً مساعداً في جامعة تكساس أن الجامعة كانت تشجع العمل الاستشاري مع الصناعة كما أن أساتذة كثيرين في استانفرد كانوا يعملون معنا كمستشارين عندما كنت أعمل في البحوث بشركة لاكهيد الأمريكية . والجامعات والصناعة يحولون هذا التفاعل من أجل تغيير المناهج حتى تلمس المجتمع ولا يشعر الخريج أن ما تعمله لا نفع فيه ولا فائدة منه .

وبالطبع يفلحون كثيراً ويخفقون قليلاً في إيجاد التناغم المرجو بين مناهج الجامعات وحاجات المجتمع ومطالبه .... ولكن القضية مطروحة على الدوام والمهمة الاجتماعية والجدوى الحضارية للمؤسسات التعليمية هناك من القضايا التي يديمون النظر إليها ....

ولننظر الآن إلى أنفسنا .

إن المؤسسات التي نقلناها وتبنيناها شكلاً ومنهاجاً تمثل إفرازاً اجتماعياً لمجتمع آخر .... ولا تثريب علينا إن فعلنا ذلك في مرحلة تاريخية معينة .... ولكن كان علينا أن ندرك أننا في حاجة إلى تطويع هذه المؤسسات لحاجاتنا الاجتماعية تطويعاً دائماً متصلاً لا ينقطع ما دمنا نريد أن نعيش في هذا الزمان المتسارع في تغيراته وأحواله .

ولا أطالب هنا بتطوير المناهج لتلاحق تطورها في الغرب وإنما أتحدث هنا عن التطويع الاجتماعي لهذه المناهج لتخدم الغايات العليا للمجتمع الذي نريد أن نبنيه . ولا أتحدث هنا فحسب عن العلوم المادية (أو البرانية بتعبير الطهطاوي رحمه الله) مثل الهندسة والطب والعلوم ولكن كذلك عن العلوم الإنسانية أو (الجوانية) مثل علم النفس والاجتماع والتاريخ والاقتصاد والسياسة . ولعلنا نلاحظ بادىء ذي بدىء أن العلوم الإنسانية علوم قيمية ذات معايير عقائدية وأنها في نشأتها في الغرب

قامت على أسس معايير أخرى لا تتفق فى جملتها مع مجموعة المعايير والقيم التى ينبغى أن تنطلق منها هذه العلوم فى مجتمعنا العربى المسلم . فهذه العلوم الإنسانية ليست علوماً وضعية تقوم على مجموعة من القوانين المستخلصة من المشاهدة والتجارب فى معامل الأبحاث وإن كنا لا ننفى أن بعض هذه القوانين هو تعميم لمشاهدات اجتماعية ونفسيه صادقة فى مجال أضيق بكثير من مجال تطبيقها ثم قفز بها خيال العبقرية إلى قوانين صارمة حاكمة لمجالات واسعة وهى أضيق من أن تحيط بها كلها .

فمثلاً منذ أن استخدم علماء الاقتصاد أدوات الرياضة الحديثة فى بحوثهم ظن كثير من طلاب الاقتصاد بل وعلماؤه أن الاقتصاد علم وضعى لا يتصل بالقيم بسبب من الأسباب .... ولو كان هذا حقاً ما سمعنا اللورد كينز أعظم الاقتصاديين أثراً فى هذا القرن العشرين وهو ينصح اقتصاديى أمته أن يضعوا آلهة جديدة (أى قيماً جديدة) فى عالم الاقتصاد . فيذكر شوميتر فى كتابه « الصغير هو الأجمل » ما يلى :

فى عام ١٩٣٠ م فى خلال الكساد الاقتصادى فى العالم شعر كينز بالرغبة فى التنبؤ عن الاحتمالات الاقتصادية لأحفادنا حيث قال (إن اليوم ليس ببعيد عندما يصبح كل فرد ثرياً .... وعندئذ نحترم الغايات فوق الوسائل ونفضل الحسن على النافع .... ولكن فلتحذروا .... أن الوقت لهذا لم يحن بعد ....

فخلال المائة عام المقبلة على الأقل لا بد أن نتظاهر لأنفسنا أن العدل قبح والقبح عدل **Fair is foul and foul is fair** وأن يصبح حب المال والربا والوقاية الاقتصادية آلهتنا لفترة من الزمن . إن ذلك وحده هو الذى يقودنا من نفق الضرورة الاقتصادية إلى ضوء النهار) .

وكما هو الأمر فى الاقتصاد كذلك الأمر فى السياسة . فعلم السياسة ليس علماً وضعياً وإنما هو علم قيمى يقوم على مجموعة من القيم تكون عالم الغيب فيه أو عالم « الميتافيزيقيا » كما يعبر عنه شوميتر .

فأول الطريق إذاً لإصلاح العلوم الإنسانية أن « نؤمن بالغيب .... أى أن نؤمن أنها علوم تقوم على مجموعة من الغيبيات المبدئية .... ويمكن بعد ذلك أن نستخدم أدوات العلوم والرياضات لنقد هذه العلوم من عالمها الغيبى .

فعالم الغيب الكينزى فى الاقتصاد غير مقبول على الإطلاق فى مجتمع مسلم يؤمن أن الربا شر مستطير وأن الإنفاق فى سبيل الله خير من الاكتناز وأن العمل قيمة عظيمة وليس العائد فى حد ذاته قيمة (أى أن الإنتاج ليس فى حد ذاته قيمة وإنما هو العمل) وأن المال يجب ألا يكون مركزاً فى أيدى قلة وأن المال مال الله والإنسان مستخلف فيه وأن الحرية الفردية مقيدة بصالح اجتماعى وأن الوسيلة فى شرف الغاية وأن الناس سواسية كأسنان المشط ....

هذه بعض القيم التى أراها فى « عالم غيب الاقتصاد الإسلامى » ولا بد بالطبع أن يفرغ علماء إسلاميون لتحديد عوالم الغيب فى الاتجاهات المختلفة ويأتى من بعدهم متخصصون فى فروع الإنسانيات يحاولون أن يقيموا نظماً على هذه العوالم ...

هل نقول إذاً أن هذه مهمة تحتاج إلى رجال ومن ثم تحتاج إلى مكان لها فى تعليمنا الحديث ...

من الذى سيقوم بالبحث عن القيم السائدة وعن القيم المرجوة فى كل اتجاهات الحياة ، ومن ثم يقيس الزيغ بين السائد والمرجو لينصح أجهزة التصحيح فى الأمة سواء التربوية أو التنموية بالبدء فى التصحيح ....

وما هى مناهج أجهزة التصحيح التربوية

وما هى مناهج أجهزة التصحيح التنموية

كل ذلك فى إطار تعليم موحد لا ازدواجية فيه ، فالغاية من تعليم الإنسانيات غاية اجتماعية تحددها الأمة من خلال الاتفاق المشترك على الحياة فى إطار فلسفى معين .... حيث تستلهم هذا الإطار عقلاء الأمة وحكمائها من كل ما هو مقدس ومرموق فى سماء العقائد والأفكار السائدة فى الأمة .

ونعود فنؤكد أنه لا بد أولاً أن تتحدد بوضوح تام خريطة المهام القومية فى الأمة .... فإذا تحددت هذه المهام تترجم بعد ذلك إلى مواصفات فى الرجال ، ثم تترجم المواصفات إلى مناهج إعداد ثم تترجم المناهج إلى مؤسسات علمية وسنعود إلى هذا الأمر بتفصيل أكثر بعد قليل .

ولنسترجع الآن قضيتنا الأساسية وهى قضية التعليم المدنى الذى غمر مجتمعاتنا جميعاً ولنتذكر أن هذا التعليم كان إفرازاً لمجتمع آخر أضيف إلى مجتمعنا من خارجه أى أنه لم يكن إفرازاً طبيعياً لمجتمعاتنا ومن ثم فإنه لا يمكن أن يلبى احتياجاتها الأصيلة .... وكان الأولى بنا أن نعمل دائبين على تطويعه ليلبى هذه الاحتياجات ولقد استطردنا فى هذا الحديث عن القيمية فى العلوم الإنسانية لأنها تمثل انحرافاً للتعليم الجديد الوافد بينما لم يقدم القديم العتيق أى بديل فى هذه الميادين وما زال غارقاً فى دراساته القديمة التى لا تمس حاجة الناس فى قليل أو كثير ....

أى أن الجديد الوافد يمثل تغايراً فى المكان والقديم العتيق يمثل تغايراً فى الزمان .... ونحن نريد نظاماً يناسب المكان والزمان ويفى باحتياجاتنا نحن لا احتياجات غيرنا فى هذا العصر .

إن عقلاء الغرب يصرخون بالعودة إلى القيم الإنسانية فى غيبيات العلوم الإنسانية التى بدأت تفقد إنسانيتها هناك وتتحول إلى آلة هدم . بل أن كثيراً منهم يرى أن القيم الست الكبار التى أشرنا إليها من قبل والتى تحكم عالم الغيب فى الغرب سوف تؤدى بالإنسانية إلى كارثة محققة إلا إذا عادت لرحاب القيم العليا غير العادية ...

إن صرخات شوميتر فى كتابه الصغير هو الأجمل .

أو صرخات جيمى رفكن فى كتابه الأنتروبيا .

أو صرخات ليستر ثرو فى كتابه « مجتمع الجمع الصفرى » تبدو مدوية تصم آذان العقلاء وتدعوهم إلى حل سريع لهذه الإنسانية التى فقدت إنسانيتها فى علومها الإنسانية .... ولنتذكر هذه الأفكار الست التى تحكم عالم الغيب فى الحضارة التى نقلنا عنها نظامها التعليمى حذو النعل بالنعل .

١ – فكرة التطور فى كل شيء حتى فى القيم .

٢ – فكرة البقاء للأقوى .

٣ – فكرة ماركس فى صراع الطبقات .

٤ – فكرة فرويد فى الدافع الجنسى وراء حركة الإنسان .

٥ – فكرة النسبية وإنكار كل مطلق .

٦ – فكرة الوضعية وأن المعرفة الحقة لا تقوم إلا على المشاهدة وحدها .

هذه الأفكار الست هى الأعمدة الغيبية التى يقوم عليها بنيان العلوم والتعليم فى الغرب وهى التى صاغت حضارة الغرب فى شكلها الحالى وليس يصعب على باحث متعمق أن يرد سلوكيات هذه الحضارة إلى هذه الغيبيات الست .

وكما ذكرنا منذ قليل أن أهل هذه الحضارة هم أنفسهم الذين بدأوا يبحثون فى عالم الغيب المستكن فى أعماقهم وبدأت صيحات التحذير تنطلق من هنا ومن هناك من علماء أجلاء يتصايحون أنه لو لم تغير هذه الحضارة من عالم غيبها فستهلك وتهلك معها الإنسانية . ومن هذه الصيحات صيحة جيمى رفكن فى كتابه الأنتروبيا وهو ينذر قومه أن القانون الذى ينبغى أن يكون جوهر عالمنا الغيبى هو قانون الأنتروبيا ، وهذا القانون هو القانون الثانى للديناميكا الحرارية .

والأنتروبيا هى أحد الدوال التى تصف حالة أى جسم حرارياً والإسقاط الفلسفى لهذا القانون يقول : (إن كوكب الأرض كيان مغلق) (Closed) لا تنتقل المادة عبر حدوده منه أو إليه وإنما يمكن أن ينتقل عبر هذه الحدود الإشعاع . ومنذ بدء الخليقة كانت الطاقة كلها كامنة ويمكن الحصول عليها (Available) أى نافعة وكل محاولة للإنسان لاستغلال هذه الطاقة نتج عنه فقدان جزء من هذه الطاقة النافعة إلى طاقة غير نافعة لا يمكن الحصول عليها والدالة التى تقيس فقدان الطاقة النافعة وتحولها إلى طاقة غير نافعة هى دالة الأنتروبيا . ومعنى ذلك أن الزمن يحط من الحياة ولا يرتفع بها .... فكلما أسرف الإنسان فى استخدام المادة كلما حول جزء من رصيد الكوكب من الطاقة النافعة إلى الطاقة غير النافعة ....

ويضرب جيمى رفكن الأمثال المبهرة المحيرة والتى تربك ضمير إنسان الحضارة المعاصرة ....

ومن أمثلته مثال من الزراعة الحديثة والتى أحدثت الثورة الخضراء ....

إن قانون الأنتروبيا يسفه هذا الاتجاه ويدعو إلى العودة للزراعة التقليدية .... وهذا هو الدليل :

فى الزراعة التقليدية يثيب الله الزارع بعشرة أمثال جهده أى أنه لكل سعر حرارى يبذله المزارع يحصل على عشرة سعرات حرارية ....

فى الزراعة الحديثة يثاب المزارع بعشر جهده ($\frac{١}{١٠}$ من جهده) كيف ؟ ...

من المعروف أن المزارع فى إيوا فى أمريكا ينتج ٦٠٠٠ سعر حرارى لكل سعر حرارى يبذله هو . ولكن هذه نتيجة مضللة . فمن المعروف أن كوزاً من الذرة يحتوى على ٢٧٠ سعر حرارى يستخدم من الطاقة فى إنتاجه ٢٧٩٠ سعر حرارى هذه الطاقة تستخدم فى الآلات الزراعية وفى السماد الصناعى والمبيدات الحشرية .... فتكون النتيجة كما ذكرنا .... أى أن هذه الستة آلاف سعر حرارى قد بذل المزارع فى سبيلها ٦٠ ألف سعر حرارى من الطاقة وذلك فى سبيل أن ينخفض بجهده اليدوى لمصلحة الآلية وآلاته الزراعية .

ولا نريد أن نستطرد كثيراً فى هذا الموضوع ... حسبنا ما أشرنا إليه مؤكدين ضرورة البدء فى إعادة النظر فى تعليمنا للإنسانيات وأهمية دور القيم والعقائد وما تشكله من عالم للغيب .... فإن كنا نستبصر بما يحل فى غير دارنا من اضرابات عقائدية وغيبية تهدد الإنسان بالفناء فإننا لسنا بعيدين عن الخطر .... بل أنه بدأ يحيط بنا من كل جانب .... وأصبح عالم الغيب فى الحضارة الغربية نموذجاً نفسياً وسلوكياً يؤثر فينا من خلال التعليم والمحاكات الحضارية .

ونعود إلى العلوم الطبيعية (أو البرانية بتعبير رفاعة الطهطاوى) . لنلاحظ أول ما نلاحظ أننا لا نملك أجهزة تطوير دائمة لها وفى أغلب الأحيان تظل جامدة عشرات السنين وأحياناً يطور أستاذ شاب عائد لتوه من الغرب بعض هذه المناهج

فى الجامعات لتتناسب مع ما درسه هناك .... تطوير وليس تطويع .... تطوير لا يستفيد منه المجتمع شيئاً ....

وما أبرأ نفسى لقد فعلت نفس الشيء وأدخلت تطويراً على بعض مواد الدراسات العليا واستهوى كثيراً من الطلاب فى كلية الهندسة جامعة القاهرة .... ولكن ما أن اقترب العام من نهايته حتى بدأت أشعر أننى أهدر وقت أمتى ووقتى ووقت هؤلاء الطلاب فيما لا طائل منه ولا حاجة بهم إليه . بل أننى عندما عدت لتدريس هذا المنهج – التحكم الأمثل – هذا العام لطلبة الماجستير فى جامعة القاهرة وجدتنى أمضي بطريقة « السير العشوائى » (Random walk) أغير رأيى فيما أدرس وأحاول أن أضبط إيقاعى مع ما أظنه نافعاً للمجتمع ومتناسباً مع قدرات الطلاب .

ولنتذكر أن التعليم الجامعى يحتوى على عنصرين متكاملين هما : الجوهر الثقافى والإعداد التخصصى .

الجوهر الثقافى والإعداد التخصصى

والجوهر الثقافى له أبعاد علمية وأبعاد تربوية وأبعاد وطنية . والإعداد التخصصى له أبعاد تحليلية وأبعاد تصميمية وأبعاد تقنية . ولنأخذ مثلاً مادة التحكم الآلى التى تدرس فى البكالوريوس فى معظم الجامعات العربية ، لو نظرت إلى مناهجها فى معظم هذه الجامعات لوجدت أن البعد التحليلى يطغى على التصميم والتقنية .... حيث يضيع الطالب كل العام يلهث وراء التطبيق الرياضى لمحولات لابلاس ورسم مسارات الجذور .... أى سفه هذا الذى نرتكبه ....

ألم يكن أجدى فى أمة مثلنا كل علاقتها بأجهزة التحكم الآلى هو صيانتها أن يذهب معظم الوقت فى تعليم البعد التقنى حيث يتعلم الطالب الحيل الميكانيكية والإليكترونية ويخصص وقت قصير للتصميم ثم وقت أقصر للتحليل .

إننا ننفق كل عام مئات الملايين من الدولارات على صيانة أجهزة التحكم الآلى فى المصانع .... ألم يكن الأجدى إذاً أن تتجه المناهج فى هذا المجال وجهة تقنية لخدمة الصيانة ....

وإننى أتحدى من يدلنى على مهندس عربى أو أستاذ فى كليات الهندسة استخدم هذه الطرق التحليلية فى تصميم جهاز للتحكم الآلى حتى الآن . ولكن أستطيع أن أدلكم على مئات البحوث التحليلية التى قام بها أساتذة عرب فى جامعاتنا العربية ونشرت فى معظم مجلات التحكم فى العالم .... ومنها بعض بحوثى وبحوث طلبتى ....

كان رسول الله ﷺ يدعو ربه فيقول « وأعوذ بك من علم لا ينفع » .... هل هناك نفع « لأنفسنا » فيما نعلمه لطلبتنا فى مناهجنا التى استوردناها جاهزة من برامج الجامعات الغربية !

بصراحة نحن نحتاج إلى إعادة نظر مستبصرة بالبعد الاجتماعى لكل مناهجنا فى الجامعات والتعليم عموماً .

إعادة النظر فى النسبة بين البعد التحليلى والبعد التصميمى والبعد التقنى فى ضوء الحاجة الاجتماعية وفى قيود الوقت القصير والقدرة الاستيعابية للطالب العربى .

بل أننا يمكننا أن نضع المسألة فى ثوب علم النظم المثلى "optimal system" فنقول : المطلوب تحقيق أمثل جدوى اجتماعية باختيار أمثل للنسب بين البعد التحليلى والبعد التصميمى والبعد التقنى .... آخذين فى الاعتبار :

قيد الوقت القصير المخصص للدراسة الجامعية

وقيد القدرة الاستيعابية للطالب .

وقيد الحالة التكنولوجية والاجتماعية السائدة فى المجتمع واحتياجاتها القاهرة .

هل نقول أننا فى حاجة إلى تقنية المناهج ابتداء من الابتدائى حتى الجامعة ...

أجل .... هذه مهمة عاجلة يجب أن تتوفر عليها مجموعات بحثية . مجموعة تبحث فى نسبة الجوهر الثقافى والبعد التخصصى فى التعليم كله ... وهل يصلح هذا البرنامج الدراسى الثانوى بكمية الجوهر الثقافى فيه أم أننا يجب أن نضيف بعداً تخصيصاً يعين طالب الثانوى فى حرفة أو مهنة يكتسبها وتبقى فئة قليلة للتعليم الجامعى . وهل هذا الطالب فى حاجة إلى هذه الكمية من الجغرافيا والتاريخ وما إليها بقدر ما هو فى حاجة إلى مواد التعريف التكنولوجى تعده وتهيئه للواقع القائم والمستقبل المنشود .

ولماذا لا تستخدم الطرائق الحديثة فى تدريس اللغات فنوفر وقتاً هائلاً يضيع فى تدريس اللغة العربية دون أن يثمر السنة مستقيمة تجرى رخاء بلغتنا الجميلة ....

إن النحو والنقد والبلاغة لا تعين الإنسان على اكتساب ملكة اللغة - وهذا رأى العلامة ابن خلدون - وإنما تكتسب هذه الملكة بالسماع والاستخدام والتحضر .

والأصل فى اللغة أن لا تعلم للناس وإنما يكتسبوها من مجتمعهم .... وعندما تكون اللغة السائدة أحط بكثير من اللغة المرجوة يصبح دور تعليم اللغة هاماً حتى يزيل الزيغ بين السائد والمرجو .... هذه نظرية نؤمن بها حقاً .... ولكن مشكلتنا هو أننا ننفق وقتاً ضخماً باسم تعليم اللغة على علوم لا تقدم اللغة على ألسنة الناس .. علوم متخصصة يمكن أن تكون فى برامج علوم اللغويات ولكنها بالنسبة للنسبة الكبرى من الطلاب غير نافعة على الإطلاق بل فى الأعم الغالب تصبح هذه المواد منفرة للطالب .

واعتقد أنه يمكن استلهام كثير من الطرائق الغربية فى تدريس اللغة ومحاولة تطويعها على العربية ...

وهذا من المواضيع الضاغطة التى يجب أن ننتبه إليها سريعاً وقبل فوات الآوان .

ومرة أخرى نعود إلى قضية تقنية المناهج فى الثانوى لنؤكد أننا لا نختلف فى أن الدراسة فى الابتدائى والإعدادى يجب أن يظل البعد الثقافى طاغياً على كل مناهجها مع إعادة النظر فى تكنولوجيا التعليم للمواد « المزمنة » مثل اللغة والتاريخ والجغرافيا لنجعلها أكثر نفعاً وأشد جذباً . وفى نفس الوقت يدرس الطالب مادة جديدة أسميها مادة « التعريف التكنولوجى » . فى هذه المادة يتعرف الطالب على أبجديات التكنولوجيا المعاصرة فيدرس مثلاً فكرة الصنبور ليضع يده لأول مرة على فكرة الصمامات وهى فكرة تقنية أصيلة ستظل معه بدءً من الأدوات الصحية فى بيته إلى صمامات أجهزة التحكم الآلى المعقدة فى المصانع والمؤسسات .

إن تصميم منهج « التعريف التكنولوجى » وتصميم معامله من أهم ما يجب أن يشغلنا الآن ويجب أن نفسح له وقتاً فى زحمة المناهج على حساب علوم أخرى ليست بنفس أهميته الحضارية .

وتكبر هذه المادة مع تدرج الطالب من الابتدائى إلى الثانوى حيث يصبح البعد التخصصى ظاهراً وواضحاً فيها وبحيث يمكن للطالب أن يعمل بعد الثانوية العامة بشىء من التدريب الخفيف .

ولا بد أن تساند هذه المادة مناهج العلوم والكيمياء والميكانيكا والرياضيات ويعاد تصميمها حتى تعين الطالب على هذا الاتجاه .

فى منهج الثانوية العامة فى الفيزياء فى مصر يدرس الطالب الكهرومغناطيسية حيث يستفتح المنهج بدراسة عن المجال الكهرومغناطيسى ، وهذه تقريباً أول فرصة للطالب يتعرف فيه بشىء من العمق على فكرة المجال وإن كان قد درسها بسطحية عندما تعرض للمجال الكهربائى وبعد أن يُقدم المنهج فكرة المجال يتحدث عن أنواع القوى التى تتعرض لها أجسام مشحونة كهربائياً فى وجود مجال مغناطيسى وهذه بالطبع من أساسيات الفيزياء . كل هذا جميل . إلا التطبيق الذى يعطيه الكتاب على هذه القوى .... إن أول مثال يعطيه هو مثال السيكلوترون الدائرى أو المعجلات الدائرية . هل فى بلادنا معجلات دائرية . إن المعجل اخترع فى جامعة بيركلى فى الولايات المتحدة فى الثلاثينات من هذا القرن ويستخدم فى

بحوث الفيزياء النرية ونسبة ٩٩,٩٩٪ من هؤلاء الطلاب لن يتعرضوا له فى مستقبلهم الزاهر بإذن الله ....

وهناك تطبيقات أخرى كثيرة كان يمكن أن نفسح لها الوقت والمجال .... وفى هذا الكتاب نفسه فصل يتحدث فيه عن الدوائر المهتزة .... دائرة مكثف وملف .... وجاءتنى قريبة مجتهدة متفوقة تسألنى بعد أن قرأت الدرس عشرات المرات فلم تفهمه تسألني ما الذى يهتز فى هذه الدائرة وكيف يهتز .... وعندما قرأت ما كتبوه فوجئت أن الشرح ليس فقط غير مفهوم ولكنه قد جانب الصواب فى المفاهيم الأساسية لخواص المكثف والملف .

وفى الثانوية العامة أيضاً فى منهج الميكانيكا تقرأ أشياء عجيبة تطمس التكنولوجيا فى عقل أعظم التكنولوجيين .... إقرأ معى رحمك الله :

« أ ب جـ د صفيحة رقيقة مستوية وزنها و على هيئة مستطيل فيه أ ب = ٢ ب جـ . نصف جـ د فى م وفُصل المثل أ د م ثم وضعت الصفيحة فى مستوى رأسى بحيث انطبق حرفها م حـ على نضد أفقى .

أوجد أكبر ثقل يمكن تعليقه من أ دون أن تترك جـ النضد

أى ميكانيكا هذه التى تُعلمنا أن رقيقة مستوية تقف على حافتها متزنة على نضد .... كذب بواح يعرفه أى طفل يحاول أن يوقف صفيحة رقيقة على نضد .

ولماذا لا نحاول أن نصيغ للطالب مسائل وتدريبات تعلمه وتدربه ونأخذ بيده فى دروب التكنولوجيا .... لماذا ونحن نعلمه الميكانيكا ندلس له واقع الميكانيكا .... لا أدرى .... إنما هى غفلة دائمة .

دعنا نوجز ما قلناه فنقول :

لا بد أن نعيد النظر فى النسَب ين الأبعاد الثقافية والأبعاد التخصصية ، ولا بد أن نضيف مادة التعريف التكنولوجى فى كل مراحل التعليم بحيث تنمو مع الطالب كلما تقدم فى دراسته ، ولا بد أن نبدأ فى تقنية المناهج وخاصة مناهج العلوم

والميكانيكا والرياضيات بل أننا نستطيع تقنية مناهج المطالعة العربية ولولا ضيق المجال لأعطيت أمثلة على ذلك .

يبدو أنه قد سادت بيننا مفاهيم خاطئة عن جوهر العلاقة بين العلم والتكنولوجيا فنسينا أنهما مختلفين يحتاج كل منهما لاستنبات خاص فى مناهجنا التعليمية . حقاً أن معرفة أى نوع من التكنولوجيا يحتاج إلى نوع من العلم معين وكلما تعقدت التكنولوجيا احتاجت إلى علوم متقدمة ولكن التكنولوجيا والعلم اللازم لها متميزين متباينين . هل هذا هو سبب تجاهلنا التام لتعليم التكنولوجيا فى مناهجنا ....

وهل هذا هو أيضاً السبب فى عشوائية رسالة المعامل فى تعليمنا ....
إننى أعتقد ذلك

وأعتقد كذلك أننا لا بد أن نعيد التعليم إلى المعمل بعد أن أخرجنا المعمل من التعليم ....

ولكن أى معمل : المعمل التكنولوجى أم المعمل العلمى أم المعمل التعليمى أم المعمل الأكاديمى ...

أسئلة حيرى تحتاج لمن يفرغ لها ....

وفى ختام هذا الحديث عن التعليم أحاول تحديد عدة دوائر لتخطيط التعليم . فالتخطيط للتعليم يمر بمجموعة من الدوائر المتمركزة حول نقطة الأصل فى بلادنا .

- ونقطة الأصل هى ما أطلقنا عليه عالم الغيب المكون من مجموعة العقائد والأفكار العليا . وربما يحدث أن يكون هناك عالم غيب حقيقى مستكن فى ضمائر معظم الناس مختلف عن عالم غيب مرجو .... حينئذ لا بد من قيام أجهزة الإصلاح بالعمل على القضاء على هذا الزيغ بين الواقع والمرجو ...
- والدائرة الأولى هم مجموعة حضارية من حكماء الأمة الواعين للمحتوى

الحضارى لنقطة الأصل والمدركين لواقع أمتهم الزمانى والمكانى .... هؤلاء يحاولون أن يضعوا الأهداف الكلية للعملية التعليمية .

- والدائرة الثانية هم مجموعة من المتخصصين يترجمون الأهداف الكلية إلى أهداف تعليمية .
- الدائرة الثالثة هم مجموعة من رجال التعليم يترجمون هذه الأهداف إلى مجموعة من المناهج أولاً ثم مجموعة من المؤسسات ثانياً .
- الدائرة الرابعة مجموعة حضارية من النابهين فى تخصصات مختلفة تتأكد من تناسق وتناغم ما حدث فى الدوائر السابقة كما تضع وسائل قياس لمدى نجاح المناهج النهائية فى تحقيق جميع الأهداف المرجوة .... فإذا أحسست أن المناهج قاصرة أن تصل إلى الأهداف أوصت الأجهزة المعنية بالبحث والتنقيب والتصحيح .

وربما يصبح من عمل هذه الدائرة أو دائرة منفصلة النظر فى المؤسسات القائمة الآن وقياس الزيغ بين مناهجها والمناهج المرجوة والعمل على القضاء على هذا الزيغ عن طريق المتخصصين كل فى مجاله .

كيف نُكّون هذه الحلقات ونوصف أعمالها وننغم اتصالها بعضها ببعض ذلك أمر يحتاج إلى مزيد من البحث ندعو الله أن يهيىء لنا الوقت للقيام به ....

وبعد فهذه أفكار أساسية فى قضية التعليم الذى أسميناه مخ الحضارة . وأذكر أننى كتبت من قبل أن التعليم هو خط دفاعنا الأول فالجيش فى أمة جاهلة جيش أمى لا يستطيع أن يصبر فى معارك اليوم لحظة .. فلا خيرة فى الأمر ... إن لم نتحرك لإصلاح نظامنا التعليمى كله فسيدركنا الطوفان ونهلك مع الهالكين ...

الفصل الخامس

الطاقة البشرية بين الحرفية والإنتاج النمطى

فى العالم النامى

لقد عشت طفولتى فى مجتمع يعيش مما صنعت يداه ... يزرع أرضه .... ينسج ثوبه .... يصنع أدواته . لقد رأيت أمى وجدتى وخالاتى يصنعن الجبن فى البيت والزبد فى البيت والخبز فى البيت .... وأدركت خال أبى وهو يحترف صباغة النسيج الذى صنعته أيدينا من القطن .... ورأيت وعملت فى ورشة أبى التى كانت تصنع الأحذية لأهل القرية وما جاورها من القرى .... وكان أبى لا يعمل فى صناعة الأحذية فحسب ولكنه كان يعمل فى الزراعة والتجارة على حد سواء .... وكنا لا نعرف من الفاكهة إلا ما تنتجه أرضنا الطيبة المعطاءة .... نأكل من ثمرات النخيل والأعناب والجوافة والمانجو والبرتقال رزقاً حسناً .... وتجفف أمى وجدتى وأخواتى البلح العمرى ما نأكل منه طول العام .... ويجففن كذلك أنواعاً من الخضراوات لنظل نطعمها فى غير أوانها وحتى يحين موعدها بعد شهور .... وكنا نبنى بيوتنا من الطوب اللَّبِنْ الذى تصنعه أيدينا من طين أرضنا مما جاد به النيل عليها من طمى يفيض به طول السنين .... ونسقفها بسعف النخيل وخشبه .... ونتخذ من النباتات الجافة والأخشاب الجافة من عطاء أرضنا وقوداً لطعامنا ودفئنا وصناعاتنا ...

وكان الصبية يتنقلون بين الورش ليدركوا بعض الحرف ويتقنوها .... وكانت هذه الورش معاهد عظيمة لتخريج المهرة من العمال ....

وما أن يبلغ الصبى الخامسة عشرة حتى يكون قد امتهن مهنة يشارك من خلالها فى اقتصاد القرية .... ويستعد بعدها للزواج وبدء أسرة جديدة .

وكنا لا نطعم إلا أشهى اللحوم مما ننميه فى حقولنا من الماعز والخراف والجمال والبقر والطير ومن الخضراوات الطازجة التى لم تعبث بها آلاف الأيدى ....

وكنا نعطى المدينة أسباب حياتها ونأخذ منها بعض كماليات نستطيع العيش بدونها ....

كنا نعطيها الحبوب والبقول والقطن واللحم والخضراوات واللبن والزبد والجبن والبيض والقصب وتعطينا هى الشاى والسكر والبن وبعض المنسوجات الفاخرة لبعض المترفين . وكنت أعرف أهل القرية جميعاً ويعرفنى أهل القرية جميعاً .... ولم يكن كل فلاح يملك محراثاً .... ولكننا كنا مجتمعاً تعاونياً نشترك فيما غلا سعره من الأدوات .... فلا يبخل الغنى بمحراثه ولا طمبوره ....

وكان الجلباب هو زينا القومى .... وله صورتان .... صورة قديمة نسميها « البلدى » وصورة حديثة نسميها « الأفرنجى » وأذكر أن « البيجامة » لم تدخل قريتنا إلا فى منتصف الأربعينات وكانت مادة للسخرية فى أول عهدنا بها ....

وكانت صلة القرية بالحكومة واهية كخيط العنكبوت .... متمثلة فى نقطة الشرطة والتجنيد الإلزامى وبعض المصالح المدنية من خلال مأذون القرية والعمدة ومشايخ البلد والمدرسة الأولية الحكومية ....

أما المنازعات فتكاد تكون داخلية تماماً يسعى عقلاء القرية لحلها بالمعروف ....

أيام قد خلت .... يميزها إيقاع متناغم مع الطبيعة ....

واكتفاء ذاتى وعطاء للغير من غير ضجيج ولا ادعاء ....

ثم أتت من بعد ذلك أيام لنا فيها ظنون وأى ظنون ....

فالقوة الاقتصادية التى كانت تملكها القرية بدأت تفقدها رويداً رويدا بعد أن انتشرت الدولة فى القرى والنجوع وفرضت أنماطها فى التعليم والإدارة والاقتصاد والترفيه فأحالت الفلاح المنتج إلى جائع ينتظر الطعام يأتيه من خارج قريته .... حتى الخبز والفاكهة واللحم يأتيه من أعالى البحار ....

لقد سرق التعليم العام الذى أصبح كالماء والهواء فى وزارة طه حسين كل موارد الحرف والزراعة من الرجال وأحالهم إلى أنماط من البشر يأكلون ويشربون ويترفهون ولا ينتجون .... وأصبح أمراً عادياً أن ترى « بغلاً » عمره قد تجاوز الثلاثين ومازالت أمه تنفق عليه وتسعى فى خدمته .... وما زال هنا « البغل » ينتظر خطاب تعيين للعمل كمومياء فى إحدى وظائف الدولة التحنيطية . ولم يكن نظامنا التعليمى ضالعاً وحده فى مأساة الحرفية والطاقة البشرية المعطلة ولكن إصرارنا على « التصنيع من فوق » أضاف هماً ثقيلاً إلى همومنا المتراكمات . « فالتصنيع من فوق » أى من فوق طاقة المجتمع الاستيعابية قد أفقدنا فرصة تاريخية للتدرج الواعى بطاقتنا البشرية فى مدارج الصناعة حتى تستوعب هذه الطاقة دروس الصناعة شيئاً فشيئاً ....

فالصناعات المتقدمة تحمل معها آلاف الطيوف من الأعمال والمهارات فى التشغيل والتصميم والتطوير والإدارة والاجتماع والاقتصاد وكلها أمور يقوم عنا فيها أصحابها الغربيون ولم ندرك من هذا كله إلا بذلنا للطاقة الرخيصة والعمالة الرخيصة ...

ثم أن هذه الصناعة الفوقية تتطور فى بلادها بسرعات مجنونة ونحن فى اللحاق بها نحرم أنفسنا من فترات الحضانة الهادئة اللازمة للتعليم والتدريب والاستيعاب ....

فى محاولة الهيئة العربية للتصنيع الحربى أن ترتفع بكفاءة العاملين فيها إلى مستويات متقدمة كونت جهازاً جديداً أسمته المعهد العربى للتدريب والذى صمم برنامجاً لإعادة تعليم وتدريب المهندسين فيه بالتعاون مع بعض الكليات فى انجلترا وفرنسا ومصر . ومن خلال هذا البرنامج حصل الكثيرون على شهادة الماجستير فى الهندسة .

وما أن حصل هؤلاء على الماجستير حتى أصبحوا يتطلعون إلى الدكتوراه وإلى العمل فى الخارج وضاقوا بالمصانع وأصبحت مشكلة بقائهم فى المصانع مشكلة حقيقية للإدارة فى هذه المصانع وزاد من صعوبة الموقف أن توقف التعاون العربى فى هذا المجال فتوقفت كثير من المشاريع إلى حين وأصبح هذا الشباب الذى ذاق

حلاوة الحياة العلمية فى الغرب وسرعتها وبهاءها عبئاً ثقيلاً على نفسه وعلى مصانعه وبدأت الاستقالات والهروب إلى الخارج .... وبدأنا نفقد طاقة بشرية أنفقنا على إعدادها من الطفولة حتى الرجولة .... فقدناها لأننا أعددناها لغير ظروفنا وسهلنا لها رؤية البديل المناسب وظيفياً فأغريناها به فاندفعت إليه وهى حائرة بين وظيفتها وبين مستقبلها الموهوم .

وهذا الذى حدث فى الهيئة العربية للتصنيع هو صورة مصغرة لما يفعله بنا جهازنا التعليمى كله من إعداد الأمة لغير مهامها الواضحة فيضيع الباقون فى الداخل والذاهبين إلى الخارج .

ولعلنا نستعيد هنا ما قلناه فى مكان آخر عن تفاعل المقاييس . فشباب المهندسين الذين أنفقت الهيئة على تدريبهم يعيشون داخل مصانعهم وفى مجتمعهم بمجموعة مقاييس اجتماعية معينة تحدد اقتصادهم وتحدد اجتماعياتهم والمستوى الحضارى العام الذى يعيشونه .

فما فعلت الهيئة إلا أنها دربتهم وعلمتهم وعرضتهم لعالم تختلف مجموعة مقاييسه عن المقاييس الحاكمة فى حياة هذا الشباب اختلافاً بيناً .... اختلافاً يستحيل معه التناغم والاستفادة ... مع غياب القدرة التى تعطى المثل فى البذل للوطن وظهور أنماط من البشر لا يعطون شيئاً بينما يأخذون كل شىء .

كما أن إدخال الميكنة على حرف كانت مستقرة فى بلادنا لأجيال خلت أدى إلى اختفائها أو توهينها وضيع معها طاقة بشرية .... لا هى قادرة على القديم ولا هى قادرة على الجديد .... لقد بدأت أجيال النجارين والدباغين وصناع الأثاث وصناع الأحذية والنساجين وغيرهم فى الاختفاء لتحل محلهم الماكينة المستوردة والتى تُضيف إلى ضعفنا ضعفاً جديداً حيث نلهث وراء قطع الغيار والتجديد والمواد الخاصة التى لا ننتجها وإنما نستوردها فنخضع عالم السياسة لعالم الاقتصاد وتزيد تبعيتنا أضعافاً .

وثمة أمر آخر خطير يعوق قيام حرف جديدة وهو اتجاهية المنتجات إلى الزوالية حسب تعبير مؤلف صدمة المستقبل ....

فمن الذى يريد أن يصلح ساعته الرقمية ....

إن إصلاحها يتكلف أضعاف ساعة جديدة ... وأن الاستبدال هو أحد السمات المميزة لمجتمعات ما بعد الصناعة ....

ولقد تبنينا منتجات مجتمعات ما بعد الصناعة رغم أننا مجتمعات ما قبل الصناعة .... وأصبح الاستبدال سمة من سماتنا .... فقد يكون الاستبدال ظاهرة صحية لمجتمعات ما بعد الصناعة ولكنها بالتأكيد ظاهرة مرضية بالنسبة لمجتمعاتنا .... مجتمعات ما قبل الصناعة .... فحرفة الساعات القديمة فى بلادنا تعتبر معملاً نتعلم فيه أبجديات التكنولوجيا الحديثة ونرى فيه التروس والزنبرك والقلاووظ ونقل الحركة وتخفيضها وظاهرة الاهتزاز ومداها ولكننا نتحرك زيولاً فى العالم لا رؤوساً .... وويل لذيل ليس أمامه رأس .

إن التبديل الذى هو سمة من سمات المجتمعات الغربية اليوم سوف يضعف لا محالة قدرتنا التعليمية والتى تساعد الحرف فى تأصيلها .

وفى مثل هذه الظروف يجدر بشعوبنا أن تمتع نفسها بفترة حضانة تسد فيها منافذ رياح التبديل الدائمة والمتعلقة بالخطوط الأولى للتكنولوجيا المعاصرة وتقنع بالغوص فى تكنولوجيا متوسطة وذلك كله يحتاج منا إلى فلسفة حياتية تعلمنا إنتاجاً أكثر وذهداً أكبر .... أى أن فلسفتنا يجب أن تحرص على استقرار بعض المنتجات حتى لو كانت لها بدائل متغيرة فى الغرب وتقاليع جديدة كل يوم فى بلاد ما بعد الصناعة .... ويرتبط بذلك توازن وتكامل بين مجموعة من الحرف ومجموعة من الإنتاج النمطى . ولا بد أن نعمل الفكر فى كيفية التحول من الحرفية البسيطة إلى حرفية جديدة متكاملة مع صناعات نمطية . ولنأخذ منظومة الأثاث كمثال لتكامل الحرفية والنمطية .

الأثاث فى بلادنا اليوم منظومة مهلهلة تمثل واقعنا النفسى المبعثر . ففى خلال هذا القرن تطور الأثاث المنزلى من نمط شبه مستقر على مدى آلاف السنين إلى أنماط أخرى تتسارع فى التغيير والتبديل مع كتب النماذج الأوروبية جميعها من أول إيطاليا إلى آخر أمريكا ....

إن أبسط ما يقال عن هذا الأثاث الشائع الآن بيننا أنه غير وظيفى وغير مناسب مع ضيق المساحات فى بيوتنا وأزمة المساكن المحيطة بنا فى كل أنحاء العالم العربى . ولا يقولن أحد أن هذا يمثل الذوق العام السائد .... وإنما يمثل أنماطاً انتشرت مع القابلية للاستعمار والركون إليها ....

هل يمكن أن تتعاون الحرفية والنمطية فى منظومة الأثاث .. ؟ أجل ... يمكن ذلك . ونقطة البدأ فى جامعاتنا ومراكز بحوثنا المختلفة حيث يبدأ الباحثون بدراسة أنماط جديدة من الأثاث تحقق الوظيفية والاقتصاد وتساهم فى مشكلة العمالة المعطلة . فلو درس هؤلاء الأساتذة وتلاميذهم مجموعة من النماذج النافعة وحولوها إلى مجموعة من العناصر التى يمكن إنتاجها نمطياً وأعدوا مع هذا كراسة تجميع وتوضيح لبعض العمليات الإنهائية وتم ذلك على مستوى الدولة أو على مستوى الاستثمار الخاص لاستفادت النمطية واستفادت الحرفية على حد سواء .

جاءنى طالب يدرس الماجستير فى موضوع التصميم الأمثل للهياكل .... ولقد أعطاه زميل لى هذه النقطة البحثية وتركه لمجموعة من المعايير الرياضية يقارن بينها ويجربها على الحاسب الآلى ....

قلت لهذا الطالب ماذا لو بدأت تفكر فى التصميم الأمثل لهيكل مكتب صغير للتلاميذ .... كلنا نريد مكاتب لأبنائنا للاستذكار .... وما هو معروض فى الأسواق ليس مثالياً فى شىء .... لا فى المساحة التى يستخدمها ولا فى قدرته التخزينية ولا فى طوله وعرضه ... مجرد مكتب صنعه نجار جاهل بكل المتطلبات الحيوية لهذا المكتب لأنه أصلاً لا يعرفها ولم يجلس للاستذكار يوماً ما على مكتب .

وماذا لو بحثت فى تصميم هذا المكتب من مجموعة من العناصر يمكن ضمها جميعاً فى صندوق ومعها خردواتها بحيث يستطيع الطالب بشىء من التوضيح فى كراسة مرافقة أن يجمع هذا المكتب فى البيت حتى يتدرب ويعمل ويكون ذلك درساً من دروس حياته .

ولم يرق هذا الاقتراح لطالب العلم الذى يتصور العلم معادلات وحاسب آلى ونظريات معقدة لا يفهمها أحد وانصرف ولم يعقب .

بل أنني خيرت طالب دكتوراه بين البحث فى منظومة الأثاث كمنظومة هندسية اجتماعية وبين منظومة الصيانة فاختار الصيانة .

وهذه مشكلة الوعى الحضارى بأهمية مشكلات بعينها والتى نراها غائبة عن عقول وأفئدة مثقفينا الجامعيين والعاملين فى مراكز البحوث .

مرة أخرى نحن نحتاج إلى بحوث متصلة فى النظر إلى المنظومات المختلفة فى حياتنا وتنظيم كل منظومة من داخلها بحيث تتعاون فيها الحرفية والنمطية على بناء الخبرة الوطنية وتلبية الحاجة القومية .

وها هى ذى مشكلات التحول للإنتاج النمطى والتوازن بينه وبين الحرفية وهى مشكلات جديرة ببحوث متصلة ....

١ – الطاقة البشرية وقدرتها التغييرية .

٢ – مفهوم العمل والوقت والحرفية والمعادلة الإنتاجية وتوازن الطاقة بالنسبة للفرد المسلم .

٣ – المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المرتبطة بالتحول للإنتاج النمطى .

٤ – دور الإنتاج النمطى فى استنبات الصناعة الوطنية .

٥ – دور الحرفية فى استنبات الصناعة الوطنية .

٦ – التوازن بين الحرفية والإنتاج النمطى فى وعاء اجتماعى معين وظروف حضارية معينة .

٧ – الإنتاج النمطى للعناصر الأساسية وطيف الحرف التى يجب تشجيعها فى برنامج قومى موجه .

٨ – صناديق الهوايات كطريق لاستنبات الحرف .

٩ - طيف الحرف وطيف التدريب المطلوب لكل حرفة .

١٠ - التجربة الغربية فى التحول من الحرفية إلى الإنتاج النمطى والدروس المستفادة من هذه التجربة مع ملاحظة أن التحول من الحرفية إلى النمطية اقترن بقدرة المجتمع على صناعة أدوات الإنتاج النمطى .

١١ - علاقة آلات الحرف بآلات الإنتاج النمطى المشابه .

١٢ - فلسفة الإنتاج النمطى وعناصره .

١٣ - برنامج حضارى للتحول المرجو . بحيث يكون هناك تواجد أمثل بين الحرفية والإنتاج النمطى فى وعائنا الاجتماعى .

١٤ - الاستخدامات الثابتة للأشياء على مستوى الدولة كأداة من أدوات التحول إلى الإنتاج النمطى .

الفصل السادس

المساعدات والتنمية

يذكر الاقتصادى العظيم شوميتشر فى كتابه « الصغير هو الأجمل » أن قيمة المساعدات التى تعطيها الدول الغنية إلى الدول الفقيرة لو قسمت على أفراد هذه الدول لكان نصيب كل فرد فيها حوالى ٢ دولار أمريكى فى السنة . مبلغ تافه لا يقدم ولا يؤخر . ويتساءل فى استنكار : وهل يغنى هذه الشعوب لو زدنا هذا إلى ثلاثة دولارات أو حتى أربعة دولارات ....

ويذكر صديق أريب من إحدى الدول العربية البترولية أنه فى أعقاب حرب ١٩٧٣ زار مسئول غربى كبير هذه الدولة واجتمع مرة بمجموعة من المثقفين الوطنيين المسئولين عن قطاعات التنمية المختلفة فى الدولة ودار حديث بين المسئول الغربى والمثقفين حول استبدال الزيت بالتكنولوجيا . وعندما سأل المسئول الغربى مثقفينا الوطنيين عن تصورهم كيف يتم ذلك فوجىء صاحبى – وهو منهم – بإجابات لا تقدم ولا تؤخر .

فالسؤال جديد والقضية لم تطرح من قبل .

ويقول بعض الذين فى قلوبهم شك دائم من سيكولوجية الدول المتقدمة المساعدات تقدم إلى الشعوب النامية بطريقة تزيدها تخلفاً واعتماداً على الغرب وأن هذا مرسوم بدقة فى صفحات كتاب يسمونه بالاستعمار الجديد . ويضربون لك الأمثال من واقع هذه المساعدات ومضمونها ويتساءلون : هل الشعوب الحابية فى فى أفريقيا وآسيا فى حاجة إلى مصانع المياه الغازية وإلى الفيض القاهر من عالم الأشياء فى الغرب .... أو هل هذه الشعوب قادرة على استيعاب الصناعات الضخمة التى اكتسحت فى طريقها آلاف الصناعات الصغيرة الوطنية وحطمت

مجتمعات الاكتفاء الذاتى وحولت الشعوب إلى طوابير تنتظر الخبز والماء يأتيها من عالم اخر بينما تسمح فى ذلك أن تبيع لحمها الحى من كنوز البيئة التى تملكها لجيلها ولأجيال سوف تأتى من بعد .

ويستطردون فيقولون : ألم يفسد النموذج الغربى للحياة والذى دخل علينا من طريق المساعدات الاتزان الطبيعى بين المدينة والقرية .... فأصابنا مرض التنمية العضال المتمثل فى شيطان ذى قرنين .... قرن البطالة الساحقة وقرن الهجرة الجماعية من القرية إلى المدينة . ويضحك أحد هؤلاء فى سخرية بالغة وهو يتذكر المنح التعليمية التى تمنحها الدول الغنية للدول الفقيرة بعد أن وقعت الأخيرة فى براثن نظام تعليمى لا تدرى ما هى فاعلة فيه وبه ....

يتذكر الصديق هذه المنح لنيل الدكتوراه فإذا هى مسالك ودروب لاستنزاف العقول الفذة سواء بقيت فى الغرب أو عادت إلى أوطانها وقد فقدت باطنها وظاهرها على السواء .

وتزيد سخرية الصديق وهو يتحدث عن المساعدات العسكرية فيقول :

إنا لا ندرى من يساعد من .... الشعوب الفقيرة تساعد الغنية على التخلص من ترساناتها الحربية القديمة وتطوير أدوات الدمار أم الشعوب الغنية تساعد الشعوب الفقيرة على خوض حروب مصممة خصيصاً لهذه الشعوب وعلى « قدها » .... حروب تهلك حرثها ونسلها وتوقف نموها .... كلما خبت نار أوقدوها لهم وزينوا لهم دخولها « وأدلجوا » لهم الحياة (أى جعلوها أيدلوجية) وقسموا لهم الأرض وأطلقوا الأخ ضد أخيه والأب ضد بنيه وقالوا للشيطان تزعم .... ونحن لا نريد أن نستطرد مع هذا الفريق الذى يصر على أن نفسر مضمون المساعدات بمفهوم الاستعمار الجديد .

ومنطقنا فى هذا أن الله شاءت حكمته أن يكون الخلق أزواجاً ...

فالاستعمار زوج القابلية للاستعمار .... وإذا كان الاستعمار خارجى فإن القابلية للاستعمار داخلية .... والمنطق يقودنا أن نصلح الداخل قبل أن نفكر فى الخارج .

ونحن قد أهملنا أن ننظر إلى قضية المساعدات الخارجية من مفهوم المنظومة الكاملة فجاءتنا الضربات من حيث لا نحتسب وانقلبت أمام أعيننا الأمور فإذا الخير أصبح شراً والشر أصبح خيراً ....

ونحن لا نظن كذلك أن الحضارة الغربية قد خلت من العقلاء والذين تمتلأ قلوبهم بمعانى الخير والرحمة والذين يسعون جاهدين لبذل المساعدة الحقة للشعوب الحابية .

حدثنى صديق كريم يعمل رئيساً لقطاع بحوث المواصلات فى أكبر معهد بحثى فى أمريكا أنه كلف من قبل المعهد بدراسة المرور والمواصلات فى عاصمة إسلامية مكتظة . وكان صاحبنا سعيداً بهذا التكليف مبتهجاً بمهمته فى خدمة دولة إسلامية متحمساً لها .... وأنه لكذلك حتى يصدمه الواقع المر فى هذه العاصمة .... واقع القوم الذين لا يعرفون ماذا يريدون .... والمثقفين الذين لا يعايشون مشاكل أمتهم .... وغياب التخطيط .... والفوضى الضاربة أطنابها فى هيكل القوى البشرية وضياع المسئولية .... ثم وهذا هو المهم دناءة كثير من المسئولين وانحطاطهم ولهثهم وراء مغانم حقيرة لا يهم بعدها مصلحة قومية أو كسب وطنى .

المعضلة الفنية فى موضوع المساعدات

إذا حسنت النيات من المساعد أو المساعد فتبقى هناك أمور فنية تحتاج إلى حل واضح مبين .

فالدول الصناعية الغنية تملك تكنولوجيا ضخمة متقدمة وورائها نظام تعليمى فى ضخامتها وتقدمها ونظام اقتصادى يؤازرها ويحميها ونظام اجتماعى يناسبها ويتناغم معها .

والدول الحابية تتعايش فيها مجموعة من القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والتقنية غير متناغمة فيما بينها بل ومتقاتلة فى الأعم الغالب . فالتكنولوجيا المتقدمة

فى الصناعات الضخمة المستوردة تعيش فى عزلة تامة حتى عن بعضها البعض ولا تمثل فى الواقع خبرة مستفادة ومستوعبة فى كيان الأمة .... فهى مستمرة فى اعتمادها فى كل شىء على التكنولوجيا الأجنبية .... وتمثل فقط خطوط إنتاج فى أراضينا لتكنولوجيا الغرب .

ومن دون ذلك خليط ضخم من الحرف والصناعات الصغيرة التى فقدت كثيراً ممن كانوا يتجهون إلى تعلمها بعد انتشار التعليم الحديث وتحمل الدولة مشكلة توظيف هؤلاء الخريجين وتكدسهم فى المكاتب ففقدت الأرض من يفلحها وفقدت مع هذا طبقة الصناع والحرفيين ممن كان يقوم عليهم اقتصاد القرية . ثم تولى هؤلاء إلى المدينة يبحثون عن فرص الرزق وأصبحوا خطراً أمنياً تتداركه الدول بتكديسهم فى وظائف غير معرفة يفقدون فيها ذاتهم ويستسلمون لبلادة قهرية .. طوابير من وراءها طوابير تنتظر ما تفيض به آنية الحكومات وما تتفضل به المنظمات الدولية ....

والمعضلة هنا كيف يستطيع الاقتصاد المتقدم فى الغرب أن يمد يد المساعدة للاقتصاد المتأخرة فى الدول الحابية .

هل يمدها بأنماط حياتية متقدمة تزيدها تخبطاً وتأخراً .

هل يفتح عليها أبواب عالم أشيائه فتعتاد عليها وبينها وبين تصنيعها بون شاسع عظيم .

هل يعينها على ترك اقتصادها القديم والولوج فى نوع من الاقتصاد المتقدم الذى يملكه الآن وهى بعد غير قادرة على فهمه واستيعابه والمحافظة عليه .... فتزيد تبعيتها بل ويضيع استقلالها .

هل يعينها على تبنى نظامه التعليمى ونظامه البحثى ثم يجد الخريج نفسه معطلاً فى قومه فييأس أو يهرب ....

المعضلة هو عدم التكافؤ التكنولوجى بين صاحب التكنولوجيا والضارع لها والأمر ليس ببساطة عطاء وأخذ والمشكلة فنية معقدة تحتاج إلى حلول فنية معقدة

وليست القضية كلها حسن نية المانح أو الممنوح .

مهمة العون الغربى للدول الحابية :

أولاً نحن من دعاة التكنولوجيا الوسيطة أو الملائمة لا من وجهة نظر بيئية ولكن من منطلق القدرة على الاستيعاب والتدرج والمحافظة واستخدام الطاقة البشرية الضخمة التى لم يمكن حتى الآن استيعابها ولا تدريبها على الانتقال من عالم حرفى أو مهنى يتعلق بالاقتصاد الاكتفائى الصغير إلى عالم التكنولوجيا المتقدمة وعالمها الاقتصادى العالمى الرهيب .

ونؤمن أيضاً أن الحل الأوفق فى ظل تورطنا الحضارى فى استيراد تكنولوجيا متقدمة أن نقرر لأنفسنا احتمالية معايشة التكنولوجيا الصغيرة لهذا المارد المستورد معايشة تعاون وترابط .

ومن هنا أيضاً نتصور احتمالية معايشة النظام التعليمى المستورد فى بلادنا لنظام آخر يخدم التكنولوجيات الصغيرة ويرعاها . ولابد أن نعمل على أن يكون نظامنا الاقتصادى والاجتماعى قادراً على حماية خليطنا التكنولوجى لا يطغى على واحدة إلا إذا كان ذلك أمراً مقرراً .... قررناه عن علم ... واتخذناه بحكمة بالغة . فإذا كان ذلك كذلك اتضحت لنا مهمة العون الخارجى فى الأمور الآتية :

أ - بالنسبة للقطاع المتقدم :

١ - المشاركة بقوة علمية وطنية مع بيوت الخبرة الأجنبية فى الدراسات الاقتصادية والفنية .

٢ - المشاركة مع الشركات الأجنبية المنفذة بقوة وطنية فى التصميم والتنفيذ والتركيب .

٣ - المشاركة مع الشركات الأجنبية بقوة وطنية فى وضع فلسفة الصيانة والإشراف الكامل على دقائقها .

٤ – وضع برنامج مع الشركات الأجنبية على تصنيع قطع الغيار اللازمة لأعمال الصيانة فى الدول الحاية .

٥ – وضع برنامج مع الشركات الأجنبية على تصنيع الخامات اللازمة للصناعة فى الدول الحاية بدل تصديرها خاماً .

٦ – تنظيم السوق العالمى بحيث يمكن للصناعات الضخمة المقامة فى الدول الحاية أن تشارك بقدر معلوم (وإلا أصبحت هذه الصناعات الضخمة خسارة من كافة الوجوه) .

٧ – اطلاع الدول الحاية على التقدم التكنولوجى فى الصناعات المتقدمة لقاء أجر معلوم .

باختصار نؤكد أن المطلوب ليس هو نقل المصانع الضخمة فحسب وإنما يلزم أن ينتقل معها « كم معرفى » يعين الدول الحاية على التفاعل المثمر مع التكنولوجيا المستوردة فهماً وتشغيلاً وصيانة واستنباتاً .

ب – المساعدات بالنسبة لقطاعات التكنولوجيا الصغيرة والوسيطة :

١ – طرق معرفية تفيد الإنتاجية فى مجال الزراعة .

٢ – تكنولوجيات صغيرة تتعلق بالصناعات الغذائية .

٣ – تكنولوجيات الطاقة الهوائية والشمسية الصغيرة والتى تحتاج إلى حجم معرفى صغير .

٤ – تكنولوجيات الزبالة .

٥ – تكنولوجيات تعليم الحرف والمهارات للأعمال النفس حركية .

٦ – تكنولوجيات تربية الحيوان والأسماك .

٧ – تكنولوجيات متوسطة قديمة بالنسبة للمجتمعات الصناعية ذات أتمتة بسيطة .

هيكل الجهاز القادر على تحقيق هذه الأهداف :

من الذى يقوم على تنظيم المساعدات بين الدول المتقدمة والدول الحالية الآن ....

وما هو جوهر الفكر الذى يحكم عقول القائمين على أجهزة المساعدات وهل تكمن المشكلة أصلاً فى هذا الجهاز أو هذه الأجهزة ....

على الأقل من وجهة نظرنا أن المهمة العاجلة والهامة هى تصميم المنظومة البشرية للمساعدات بحيث لا تعتمد فقط على المنفذين من الاقتصاديين ورجال السلك الدبلوماسى وإنما تصبح مؤسسة قادرة على البحث والتنقيب فى الأشياء الحاكمة – معرفة أو مادة – بحيث يدفع وجودها فى عقولنا وبين أيدينا بقدراتنا على العيش الكريم فى العالم المعاصر خطوات إلى الأمام .

أولاً : لا بد أن نبحث عن وجود مؤسسات شبيهة بما نريد فى العالم لأن ما وصلت إليه مثل هذه المؤسسات يمكن أن يكون عوناً لنا فى مهمتنا .

ثانياً : النظر فى إمكانية التعاون مع المنظمات الدولية مثل اليونسكو وجامعة الأمم المتحدة وغيرها من الهيئات الدولية .

ثالثاً : تخطيط المنظومة الذاتية وتصميمها بحيث تصبح ممثلة بحق لتطلعاتنا التقنية والعلمية وقادرة على استيعاب الفرص التكنولوجية الموجودة فى العالم وتحديد مناهج التعاون والمساعدات العالمية وتنسيقها بحيث تتناغم مع متطلباتنا الحقيقية وتدفع بنا قدماً فى طريق استقلالنا العلمى والتقنى ومن ثم الحياتى . ويمكن أن تكون هناك منظومة فرعية فى كل قطاع من قطاعات الإنتاج أو الخدمات فى الأمة يجمعها جميعاً منظومة كلية على مستوى الدولة أو مستوى الأمة .

رابعاً : تصميم منظومات فرعية للأعمال التطوعية التى تقوم بها جمعيات الإصلاح لتشارك فى هذا المجهود بدلاً من إضاعة أوقاتها فى مساعدات مادية ينتهى أثرها سريعاً ويعتاد الناس عليها كعلاج سريع .

خامساً : تصميم منظومات فرعية للبنوك الاستثمارية الإسلامية فرفع اسم الإسلام فوق بنك لا يعنى أنه يقوم بمشاريع هامة للأمة . فتصميم هذه المنظومة للبنوك الإسلامية سيعينها على التعرف على المشاريع الهامة التى يمكن أن نسميها « مشاريع فرض العين على البنوك الإسلامية » والتى تسعى بها فى ميدان التنمية الإسلامية الحقيقية .

سادساً : تصميم منظومات وظيفية مثل منظومة تأهيل الأطفال والصبيان بأعمال حرفية ومهارات تعينهم فى الحياة أو منظومة تأهيل ملايين الرجال الذين فقدوا أسباب رزقهم نتيجة للتحولات الصناعية والاجتماعية فى القرى والمدن أو منظومة إعادة تأهيل خريجى الجامعة الذين لا يجدون أنفسهم فى مجتمعهم أو منظومة تأهيل ربات البيوت ليصبحن قوة فعالة فى المجتمع وهن فى بيوتهن أو منظومة تأهيل المجندين من الشباب ليضيفوا إلى الاقتصاد القومى وهم مجندون وبعد أن يخرجوا من الجيش . وهكذا يتم تصميم نماذج لمنظومات وظيفية يمكن لأهل الخير أن يتبنوها وينطلقوا فى دروب الإصلاح من خلالها .

سابعاً : يمكن أن تشارك الجامعة ومراكز البحوث فى تصميم هذه المنظومات على مستوى العالم العربى سواء فى البدء بعد تكون المنظومة المركزية وتحديدها للبحوث المطلوبة أو بصفة مستمرة عندما تبدأ مشاكل التطبيق فى مراكز التنمية المختلفة .

الفصل السابع

الدراسات الاستراتيجية

كان هذا فى صيف ١٩٨٠ م عندما استمعت إلى طالب عربى يلقى خطبة الجمعة أمام الطلاب المسلمين فى قاعة من قاعات جامعة ستانفرد الأمريكية .... وكان موضوع الخطبة عن الحكم فى الإسلام .... الموضوع الأثير عند كل الرافضين والرافضات .... وبعد الصلاة وجدتنى أتوجه إلى الطالب وأسأله فى سخط شديد :

يا أخى من الذى سلطك على الإسلام .

وكأنما قد فاجأته بهذا الهجوم .... فتردد قليلاً ثم دافع عن آرائه بأنها مستقاة جميعهامن القرآن والسنة . واتفقنا أن نلتقى مساء بعد الإفطار وكان الشهر هو رمضان ... وذهبت إليه فى صحبة صديق باكستانى حيث شاهدت مجموعة من الشباب المسلم يتحلقون حول صاحبنا فى حلقة علم وقد وضع أمامه مجموعة من كتب التراث ينتقل من هذا إلى ذاك ويلخص ويفتى فى سهولة عجيبة ما رأيتها فى حياتى عند أعظم علماء الإسلام فى الشرق أو الغرب .... وكان أخونا يكمل حديث الجمعة ويؤكد بكل قوة أن الشورى غير ملزمة للحاكم بل أن هناك أمور ليس من الواجب أن يستشير فيها أحداً .... وهنا سألته هل تستطيع أن تعطينى مثلاً على هذه الأمور التى لا يستشير فيها الحاكم أحداً فقال بنفس السهولة واليسر : قرار الحرب !!

ونظر إلىّ أخى الباكستانى مشدوهاً وقلنا فى وقت واحد :

قرار الحرب !!

وهل هناك قرار أخطر من قرار الحرب

إن صاحبنا يرى أن قرار الحرب من الأمور غير الفنية ولذلك فليس لزاماً على الحاكم أن يستشير فيه أحد ....

وتذكرت بدراً .... وما نزل فيها من القرآن العظيم .... وما تخللها من أحداث تشرق بنور النبوة الباهر .

.... يستشير أصحابه وينزل عند رأيهم ....

.... يستشير من يجد عندهم المشورة ....

.... فليست الشورى فى الإسلام هى ديماجوجية الديمقراطية الغربية وصورتها المهلهلة فى بعض شعوب العالم الثالث ....

وما نظن أن قراراً جدير بمشورة أهل العلم من قرار الحرب . أنه قرار حضارى يتصل بالأمن والاقتصاد والاجتماع والحاضر والمستقبل ويحتاج إلى جهاز استراتيجى معقد يقوم بالدراسات اللازمة لصانعى القرار .... جهاز لا نحسبه قائماً حتى اليوم فى أى مكان من عالمنا العربى والإسلامى . وقد يكون من استراتيجيتنا أن نتفلت من الحروب التى تدفعنا إليها القوى العالمية تحقيقاً لمصالحها وتحطيماً لإمكانياتنا .... وسوف يحتاج ذلك منا فقهاً لنظريات الحروب التى يسعرها الشيطان فى عالمنا المادى الذى تحكمه مبادىء البقاء للأقوى .... كامتداد لمبدأ البقاء للأنسب إحدى نتائج نظرية التطور الدارونية . وها نحن أولاء أمم العالم الثالث وشعوبه نفيق من سباتنا الطويل لنجد أنفسنا أمام معضلة لها أنياب ومخالب . فلقد فرض علينا الشيطان المادى حروباً من صنعه وتصميمه .... قدها على قدنا .... وشغلنا بها عن مهمة البناء والتعمير .... كلما تفلتنا من واحدة صنع لنا أخرى .... صنعها بأيدينا وفى أرضنا وبأموالنا ودمائنا وعلى حساب تقدمنا بل على حساب بقائنا كله .

فكلما حاولنا الوقوف هددونا بالحروب فنتسابق على اقتناء أدوات الحرب نشتريها منهم ونكدس بها مخازننا .... وأنهم ليتفنون فى اللعب بنا بين مخالبهم الشرقية أو الغربية .

وطالما أن هناك سباق بين المخالب فستظل هنا حروب مصممة خصيصاً للدواجن . فكل تطوير فى السلاح يعنى أن سلاحاً آخر أصبح عتيقاً .... فماذا تفعل به المخالب .... تغرى بشرائه شعوب العالم الثالث بإيهامها بخطر مخلب آخر أو خطر حرب يقوم بها أخ أو صديق فإذا لم تقتنع هذه الشعوب بهذه الأوهام سعت المخالب لخلق حروب حقيقية تحرق الأخضر واليابس فى بلادنا وتعيدنا إلى التخلف القهرى رغم أنوفنا وبأيدينا ....

وانظر إن شئت إلى بعض الأرقام التى توضح سباق التسلح فى العالم :

- تنفق الحكومة المركزية الأمريكية ٤٣٪ من ميزانيتها الفيدرالية على النواحى العسكرية حتى لقد بلغت هذه الميزانية فى عام ١٩٨٠ مبلغ ١٣٨ بليون دولار بزيادة ١٠ بلايين عن عام ١٩٧٩ .
- تشمل القوة العسكرية :

  ٢٥٠٠٠ سلاح ذرى

  ٥٠٠ بارجة حربيـــة

  ١٠,٠٠٠ طائــرة

  ٤٠٠ قاعدة حربية داخلية
- تنفق الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا حوالى ٢٠ بليون دولار أمريكى على تطوير الأسلحة سنوياً .
- يبلغ الإنفاق العسكرى العالمى ٤٠٠ بليون دولار سنوياً (مليون فى الدقيقة تقريباً)
- يبلغ الإنفاق العسكرى ١٠٪ من كل الإنتاج العالمى من المنتجات والخدمات .

هذه الأرقام تبين لنا حجم المعضلة التى تواجه إنسان القرن العشرين .... فالبشرية يقود سفينها المضطرب فكر مادى نزع نفسه من كل المعانى العليا وأغرق نفسه فى عبادة المادة سواء كان هذا الفكر شرقياً أو غربياً.

والحرب أداة من أدوات السيطرة الشيطانية ومظهر من مظاهر البقاء للأقوى والغاية تبرر الوسيلة .

بل إن الإنسان الغربى فيما يبدو قد أنس إلى هذه الأحجام الضخمة فى الاستعداد الحربى ولم تعد تقلقه كوارث وويلات الحروب المستمرة هنا وهناك ما دام لا يشترك فيها بالرجال وما دامت تضمن له مكاسب مادية من بيع السلاح للشعوب المسكينة المتقاتلة على السراب والتى يقل دخل الفرد فى ٨٠٠ مليون إنسان منها عن ٢٠٠ دولار فى السنة بينما يموت ٢٠ مليوناً من هذه الشعوب من الجوع كل عام .

وتجار السلاح وما تجار السلاح .... طبقة جديدة من شياطين الإنس يبيعون السلاح للمتقاتلين جميعاً .... ويتفننون فى ذلك ما شاءت لهم شياطينهم .... لا يروعهم دين ولا يحجزهم خلق ولا تمنعهم شهامة ...

طبقة من سماسرة جهنم بين الضحايا والمخالب .... أغراهم الثراء السريع الرخيص فتشبثوا بستائره .... وأصبح ثرائهم يفوق الخيال .... وفسادهم يزكم الأنوف وتشمئز منه النفوس .... على أيديهم تذهب البلايين من الدولارات من عرق الكادحين ودماء الشهداء ... معضلة إنسانية تزداد كل يوم تعقداً .... وحيرة الشعوب النامية تشتد وتقسو . إنها تبيع عرقها ودمائها وما أكنته أرضها من كنوز لقاء سلاح عتيق .... وهى ممنوعة من فرصة التنمية حسب ظروفها التاريخية . مقيدة بأغلال لعبة التسلح العالمية وما يستلزمه ذلك من حروب مصممة وتوتر موهوم ....

فماذا تفعل شعوبنا إزاء هذه المعضلة . فمنذ بضع سنوات فى مؤتمر التضامن الإسلامى للعلوم والتكنولوجيا والذى كنت أرأس لجنته العلمية دعوت إلى تعاضد

المسلمين فى مجال التسليح سواء فى اقتنائه أو تصنيعه .... واليوم أدعو إلى إنشاء مركز استراتيجى لدراسات السلاح أحدد أهدافه فيما يلى :

١ - بحوث ودراسات حول أهداف التسليح فى أوضاع دولية ضاغطة .

٢ - بحوث حول أنواع السلاح المختلفة التى تخدم الأهداف المختلفة .

٣ - بحوث حول تحقيق الأهداف المثلى فى ظل أوضاع داخلية وخارجية .

٤ - بحوث حول المكشوف عنه من الأسلحة فى الكتب والمجلات والنشرات والمعارض .

٥ - بحوث حول علاقات الاقتصاد بالتسليح .

٦ - بحوث حول سوق السلاح الدولى وتأثره بالأوضاع السياسية فى العالم .

٧ - بحوث حول علاقة التسليح بالتخلف .

٨ - بحوث حول إنتاج السلاح وقيوده الذاتية والدولية .

٩ - بحوث حول السياسة الراشدة لإنتاج السلاح وارتباط ذلك بإنتاج مدنى .

١٠ - بحوث فى هيكلية بنك المعلومات فى التسليح .

١١ - بحوث لمراجعة السياسة التسليحية فى المنطقة كلها ومدى صحتها .

١٢ - تصميم مناهج دراسية فى علم التسليح واستراتيجياته ليدرس فى الكليات الحربية والمدنية .

الفصل الثامن

أمتنا بين مخافتين
أو دور الحاسبات فى أمة لا تحسب

عاد مثقفونا من الغرب بأنماط جديدة من البحوث لا تكاد تتصل بمجتمعاتنا من قريب أو بعيد . وتحتاج هذه البحوث فيما تحتاج إلى نوع من الحسابات المتقدمة التى لم يألفها مجتمعنا الذى ما زال يحبو فى دنيا العلوم والتكنولوجيا المتسارعة .

ومن أجل هذه البحوث المتقدمة استقدمت الحاسبات وأصبح اقتناؤها ظاهرة عادية فى كل جامعاتنا ومعاهدنا ومراكز بحوثنا .

والذين عاشوا منا فى أمريكا فى أوائل الستينات يعرفون أن المسطرة الحاسبة كانت هى أداة الحسابات السائدة فى الجامعات هناك ثم تطور استخدام الحاسبات تطوراً أسيا فى العقدين الأخيرين .

ولا نحسب أننا فى حاجة إلى تذكير القارىء أن أمريكا نموذج عام ١٩٦٠ بكل طائراتها وصواريخها وعالم الأشياء الذى اخترعته لم يكن وليد الحاسبات العملاقة وإنما كان وليد المسطرة الحاسبة ولا أحسب كذلك أننا نريد لمجتمعنا أن يصبح مثل أمريكا ١٩٨٢ فذلك مثال يحذرنا منه عقلاء أمريكا كما يحذرون مجتمعهم منه حيث يظنون أنه نموذج غير إنسانى يفسد الإنسان كما يفسد البيئة ويلتهم ما اختزنته الأرض فى ملايين السنين ليأكله فى بضع سنين ....

هل يكفينا نموذج أمريكا عام ١٩٦٠ بحجم حساباته أم ندخل فى الطاحون لاهثين كل عام وراء النماذج الجديدة للحاسبات الآلية والتى تتسابق فى القدرة والصغر ....

أولاً لا بد أن يكون هناك شيء يحسب .... لا بد أن يكون هناك ما يستدعى البحوث .... ولا أقصد بهذا « الذيول الحضارية » لأساتذة الجامعات والعائدين من الخارج يحملون معهم مشاكل مجتمعات أخرى والتى « للأسف الشديد » تمثل ٩٩,٩٪ من النشاط البحثى فى الجامعات .... ومعذرة للرقم ٩٩,٩٪ والذى يمثل نتائج الانتخابات فى معظم البلدان النامية والتى تستخدم الحاسبات الآلية فى تنظيم عمليات الانتخابات .

إن اختيارنا الأمثل « للحجم الحضارى » سيكون له تأثير فى « الحجم الحسابى » ومن ثم فى حجم الحسابات المرجوة .

فى كتابه "Small is beautiful" يدعو الاقتصادى الإنجليزى الشهير "Schumacher" إلى نبذ النموذج الغربى الحديث والذى يتسم بالضخامة فى كل ألوان الحياة من المنظمة إلى المصنع والعودة إلى النماذج الصغيرة فى كل شيء من المؤسسات الاجتماعية إلى المؤسسات الصناعية ويسوق لذلك دفاعاً قوياً مبيناً .... ويخلص إلى الدعوة إلى ما أسماه التكنولوجيا المناسبة ...

هل نتبنى الدعوة إلى التكنولوجيا المناسبة أم أن هناك اختيارات أخرى .... ومن ثم اختيارات للحاسبات وأحجامها وجدواها اقتصادياً وحضارياً ....

ما يهمنا هنا من الدعوة إلى الحجم المناسب والتكنولوجيا المناسبة هو ما أسميته فى محاضرة فى جامعة ستانفرد فى الصيف الماضى « تفاعل المقاييس » "Interaction of scales" والفكرة فى إيجاز تتلخص فى أننا يمكننا وصف مجتمع ما بمجموعة من المقاييس . وبالطبع تختلف هذه المقاييس من مجتمع إلى مجتمع . فالمجتمع الأمريكى مثلاً يتميز بكبر مقاييس المؤسسات وكبر مقاييس المعدلات بينما تتميز المجتمعات النامية بصغر مقاييس المؤسسات وصغر مقاييس المعدلات .

وعندما يضغط مجتمع ذا مقاييس كبيرة على مجتمع ذا مقاييس صغيرة يكون التأثير فى المجتمع الصغير ضئيلاً ومن هنا تقل استفادة المجتمع الصغير من هذا التفاعل .

ونحن كمجتمع صغير مضغوطون من كل جانب بحضارة ذات مقاييس كبيرة ونحن أمام هذه المقاييس نمثل غربالاً (Filter) أو مرشحاً يسمح بمرور المقاييس الصغيرة ويمنع المقاييس الكبيرة "Law pass filter"

ونحن إذاً أمام مشكلة إيجاد الحجم الأمثل لمؤسساتنا المختلفة (حتى السياسة) قبل أن نتحدث عن الحجم الأمثل للحساب والحسابات أو على الأقل نفكر فى أمر الحاسبات وفى عقولنا المشكلة الأكبر والتى تتعلق بحجم المؤسسات وتفاعل المقاييس .

هل تذكرون لمبة الراديو فى الخمسينيات من هذا القرن .... وهل تذكرون ظهور الترانزيستور فى الستينيات ليأخذ مكان هذه اللمبة .

إن حجم هذا الترانزيستور يقل عشرات المرات عن حجم اللمبة ... وبينما كان سعر اللمبة ٢ دولار كان سعر الترانزيستور حوالى عشرة سنتات .... تقدم عظيم من الخمسينيات إلى الستينيات ....

ولكن ماذا حدث الآن فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات .... لقد استطاعت صناعة المايكرو إليكترونيك أن تصنع شريحة (Chip) مساحتها حوالى $\frac{١}{٤}$ سم٢ وتحتوى على ١٠٠,٠٠٠ لمبة أو ترانزيستور وثمنها لا يزيد عن عشرة دولارات أى أن ثمن اللمبة الواحدة عليها لا يزيد عن $\frac{١}{١٠٠}$ سنت ....

أى أن اللمبة التى كانت تتكلف ٢ دولار فى الخمسينيات قل ثمنها عشرون ألف مرة فى أواخر السبعينيات .

بل أن هذه الشريحة المصنوعة من مادة السليكون تستطيع أن تؤدى عملياتها بسرعة تبلغ مليون مرة السرعة التى كانت تؤدى بها اللمبة عملياتها فى الخمسينيات . أى أن هناك اتجاهاً إلى زيادة كثافة اللمبات فى وحدة المساحات على الشرائح واتجاهاً إلى زيادة السرعة التى تؤدى بها العمليات المختلفة واتجاهاً إلى تقليل السعر بالنسبة للوحدة . وبالنسبة للكثافة فإنها تزداد كل عام أربع مرات فالرقم

١٠٠,٠٠٠ لمبة على الشريحة هو رقم ١٩٧٩ يصبح ٤٠٠,٠٠٠ فى عام ١٩٨٠ ثم ١٦٠٠,٠٠٠ فى عام ١٩٨١ ثم ٦,٤٠٠٠٠٠ فى عام ١٩٨٢ .

هل يستمر هذا الاتجاه فى الكثافة ....

إنه توقع خطى للعالِم الأمريكى آدم أُسبورن (Addm Osborne) والذى نقلنا عنه هذه الأرقام من كتابة المنشور عام ١٩٧٩ بعنوان « الأمور تتضخم ... الثورة الصناعية الثانية »

Running Wild, the next industerial revoltion

ولا بد لهذا التوقع الخطى أن يصطدم يوماً ما بجدار المقاييس الذرية والجزئية فلا يستطيع تجاوزها .... هذا إذا وصل أصلاً بالقرب من هذه المقاييس ....

والحقيقة أن التطور فى مجال هذه التكنولوجيا مذهل للغاية حتى للذين يعملون فيه . فيذكر أسبورن أن الدكتور روبرت نويس (Robert Noyce) رئيس شركة أنتل وهى أكبر شركة تعمل فى مجال المايكرو إليكترونيك قال فى اجتماع عام ١٩٧٦ ما نصه :

« إنه لن يتمكن أحد من صنع شريحة مايكرو إليكترونية تساوى فى تعقيدها الحاسب الآلى (I B M) ولكن لم يمض على هذا القول عامان اثنان حتى استطاعت شركته هو شركة أنتل أن تصنع شريحة تقترب فى تعقيدها من الحاسب الآلى(IBM) (B ومن المذهل كذلك ثبوت هيكل الأسعار الخاص بهذه الشرائح . فمنذ ظهور شريحة جديدة فى السوق يبيعها منتجها فى العادة بحوالى ٢٠٠ إلى ٣٠٠ دولار وبعد عامين اثنين تنتجها شركات كثيرة حتى يصل سعرها إلى حوالى ٢ دولار ثم لينخفض سعرها بعد ذلك إلى دولار واحد . وكأن اقتصاد الشرائح يمضى فى طريق معاكس تماماً لاقتصاد كل شىء آخر ... كل شىء يتضخم سعره أما الشرائح فينكمش سعرها مع الزمن .

إن التقدم المذهل فى هذه الصناعة ليربك حتى الذين يحملونه فوق أكتافهم لدرجة أنهم لا يستطيعون دراسة التوقعات المستقبلية ومن المدهش أن الذين كانوا

يعملون فى صناعة اللمبات غير الذين جاءوا من بعدهم فى صناعة الترانزيستور غير الذين جاءوا من بعدهم فى صناعة الشرائح ....

بل أن هذا التقدم السريع أربك مناهج التعليم فى الجامعات وفى المدارس حتى أنها تعتبر متأخرة عن ملاحقة هذه الصناعة سنوات كثيرة .

الفصل التاسع

مقدمة حول دور الدولة ودور الأمة في المهام القومية في دولة نامية

الفلسفة التى نؤمن بها :

« الدولة هى العقل المدبر والأمة هى الجوارح التى تعمل ».

وعندما تغفل الدولة عن هذه الفلسفة وتنسى مهمة العقل المدبر وتنشغل هى بعمل الجوارح يأتى عملها دائماً قليل الفاعلية وتحكمه بيروقراطيات التدخل الحكومى ويصعب إصلاحه رويداً رويداً لضخامة المشاريع وقبضة القوانين ونصبح ونمسى نرى إهداراً لطاقاتنا وأموالنا ولا ندرى جميعاً ماذا نفعل ولا كيف نوقف الكوارث المتلاحقات .

لقد أصبحنا نجد الدولة حيث يجب أن لا تكون وتغيب عن أماكن حيث يجب أن تكون .

« فالمنظمة الحكومية » لها خصائص أساسية بحكم تكوينها ... مثلاً ملكيتها معنوية وهى موزعة على الأمة وهناك قنوات ثابتة أو شبه ثابتة لسريان القرارات وطرق ثابتة أو شبه ثابتة لاتخاذ هذه القرارات وهناك أيضاً توصيف جامد لمهام المواقع المختلفة بل أن الخروج من الجمود قد يمثل جريمة بمقتضى قوانين المنظمة . كما أن الغايات الأساسية للمنظمة تظل ثابتة لفترات طويلة وغالباً لأبعاد النظر فيها إلا بعد ثبوت فشلها بحدوث كوارث .... أى ليس هناك أجهزة رصد وتوقع لهذه الكوارث قبل حدوثها والعمل على تفاديها حتى لو كان ذلك بتغيير الأنظمة والغايات ذاتها .

باختصار « المنظمة الحكومية » فى البلاد النامية منظمة إستاتيكية تحتاج إلى مناخ ثابت داخلى وخارجى لنجاحها ولكنها لا يمكن أن تنجح فى مناخ متطور

متغير متسارع في تغييره ومن هنا فإنه يبدو أنه يجب أن يعاد النظر فى « منظمات الدولة » حجماً وعدداً وطبيعة وتحدد المهام لتناسب طبيعة المنظمة الحكومية وقدراتها والتى يبدو أنها تكتسبها من كونها حكومية والتى حددنا بعضها فى أول هذا البحث .

ومن ناحية أخرى فإن حركة الإنسان فى الحياة يحددها عالم الدوافع فى نفسه وعالم التجربة فى عقله ومجموعة الفراغات المحيطة به .

ومن ثَم فللدولة دور فى تنمية عالم الدوافع فى نفس الإنسان وتنمية عالم التجربة فى عقله وتحديد مجموعة الفراغات المحيطة به والإنسان حر طليق فى دوره فى الحياة إلا ما أُجبر عليه من دوافعه وتجاربه والفراغات المحيطة به . ولا بد هنا أن يوجد توازن بين كمية الحرية وكمية الجبر بحيث تتحقق أكبر إنتاجية للإنسان فى الحياة .

ويدخل عامل القدرات الشخصية للإنسان فى تحديد قدر الحرية وقدر الجبر . فكلما زادت القدرات الشخصية (سواء القدرات الطبيعية أم المكتسبة) زادت معها كمية الحرية وقَلَّتْ كمية الجبر .

فالناس ليسوا سواسية فى قدرتهم وإن كانوا سواسية فى كرامتهم الإنسانية ومن ثَمَّ فهم سواسية أمام القانون . أما القدرات فأمر آخر وهم ليسوا فيه سواسية ومن ثَمَّ فهم ليسوا سواسية فى التوازن بين الحرية والجبر . ومن هنا أيضاً يجب أن يختلف موقف الدولة من الأفراد حرية وجبراً حسب قدراتهم .

والجبر الذى نتحدث عنه ليس هو القهر الذى يمارسه القوى فوق الضعيف والحاكم فوق المحكوم والرئيس فوق المرؤوس .... وإنما نعنى به ما أشرنا إليه من مسارات ودروب لا يجد الإنسان طرقاً غيرها ليسلكها فيجبر على سلوكها راضياً أو ساخطاً ....

والتخطيط الذى يتجاوز حدوده قد يؤدى إلى فقدان التوازن بين الجبر والحرية حيث يؤدى ذلك إلى ضغوط نفسية مدمرة على هؤلاء الذين تجاوز الجبر عليهم حدوده المُثلى كما تؤدى الحرية الزائدة عن قدرها عند قوم آخرين إلى التسيب والانفلات .

ومرة أخرى نعود إلى دور الدولة والذى شبهناه بدور العقل ونسأل هل تزرع الدولة أم تخطط للزراعة فقط ....

هل تصنع الدولة أم تخطط للصناعة فقط ....

هل تُعلم الدولة أم تخطط للتعليم فقط ....

وإذا شاركت فى الصناعة والزراعة والتعليم فأى الأجزاء تقوم به من هذه المنظومات جميعاً .

وستحدد الإجابة على هذه الأسئلة على ضوء الدراسات والبحوث التى ينبغى أن نقوم بها حول الحجم الأمثل للمنظمة الحكومية وقدرتها على الاستقرار فى مواجهة الإغراءات المحيطة . وموضوع الاستقرار هذا من المواضيع الجديرة بالاعتبار فى حسم قضية دور الدولة . فعلى المستوى الصغير والمتعلق بدور الدولة فى التعليم نجد أهمية هذا السؤال الخاص بالاستقرار واضحة جلية . ففى خلال العشرين سنة الماضية بدأت أحوال المُدرس المعيشية فى بلد كمصر تضمحل شيئاً فشيئا حتى وجد نفسه فى الثمانينيات من هذا القرن لا يكاد يجد مصاريف معيشته الأساسية فى مرتبه الضئيل . فماذا فعل .... انصرف إلى الدروس الخصوصية وذل المذكرات فى مجال التعليم قبل الجامعى .... وفى التعليم الجامعى اتجه إلى الأعمال الاستشارية وإلى الكتب كما اتجهت قلة إلى الدروس الخصوصية .... والنتيجة الواضحة لهذا كله أن آلاف المدرسين من الابتدائى حتى الجامعة انصرفت بصورة أو بأخرى عن مهمتها وأصبحنا لا ندرى هل تظل منظومة التعليم على ما هى عليه وتضطلع الدولة بكل مهامها رغم أنها غير قادرة على استقرارها وغير راغبة فيه ....

وانظر إن شئت إلى موظف فى الدولة ... يشرف على مشاريع بمئات الملايين وقراره فيصل فى إعطاء وتسلم مشاريع الدولة .... هذا الموظف على المستوى العالمى مرتبه يفوق راتبه المحلى مئات المرات ومطلوب من هذا الموظف التقوى أمام الإغراءات والاستقرار التام فى وظيفته .... قليل جداً من الموظفين يتقى الله فى وظيفته ولكن الكثرة الغالبة تشعر بالضعف أمام الإغراء وتسلم نفسها للتيار .

إن قضية الاستقرار للمنظمات الحكومية لها أكثر من جانب يحتاج لدراسات كثيرة .... ولقد أشرت هنا إلى قضية استقرار الإنسان فى مواجهة التغيرات الحياتية وفى مواجهة الإغراءات المتلألئة من حوله .

ولقضية الاستقرار جوانب أخرى غير هاتين القضيتين . فالتصميم الأمثل للهيكل الوظيفى للمنظمة الحكومية والتشريعات الحاكمة والعلاقات الداخلية كل هذه الأمور تتأثر بالتغييرات المتسارعة فى البيئة الداخلية والبيئة الدولية ومن ثَمَّ تؤثر على استقرارها .

وأنا لا أريد أن أفيض فى اقتراحات شخصية لتصميم دور الدولة ودور الفرد ولكن حسبى أن أطرح القضية حتى يسهم فى حلها كل علمائنا ومثقفينا من غير حساسية أيدولوجية .... فالمسألة ليست فى رأيى قضية أيدولوجية إنما هى فى الأصل قضية فنية .

فلا بد أن نضع القيود والضوابط والغايات ثم نسأل كيف نبنى نظاماً فى ظل هذه القيود والضوابط والغايات فمثلاً من القيود : الطاقة البشرية المعطلة - حجم الموارد - السوق المحلى والسوق العالمى - احتكار التكنولوجيا - الاستعمار الجديد .

ومن الضوابط مثلاً : التوزيع العادل للثروة - أن لا يكون المال دولة بين الأغنياء . المقدرة على الصيانة والمقدرة على التطوير .

ومن الغايات مثلاً : سرعة القرار فى المنظومة والقدرة على التفاعل السريع مع الحاجات الاجتماعية - إنتاج ما ينفع الناس - القدرة على تدريب كوادر قادرة على حمل الأعباء التنموية .... وهكذا .

ثم متى حددنا القيود والضوابط والغايات لا بد أن نسأل سؤالاً هاماً :

هل يوجد حل فى ضوء هذه القيود والضوابط والغايات .

وهل هذا الحل حل وحيد ....

وبعد فنحسب أن تحديد دور الدولة ودور الفرد فى كل مهمة فى خريطة المهام القومية أمر بالغ الأهمية لا بد أن يفرغ له كثير من علمائنا ومثقفينا .... وأن ينظروا فى القضية على اعتبارها قضية فنية واضعين الأصول العقيدية فى وضعها الصحيح مع الضوابط والقيود والغايات وغير لاهثين وراء نظم من زمن قد مضى أو نظم من أماكن أخرى . أى يتم تصميم القضية فى ضوء زماننا ومكاننا وضوء منطلقاتنا العقيدية .

إننا نهدر كثيراً من مواردنا وطاقاتنا كنتيجة لسوء تخطيطنا لدور الدولة ودور الفرد فى كل منظوماتنا الحياتية .

فيقول حينئذ كثير من الذين لا يرون للدولة دوراً : حسب الدولة أن تقوم بالأمن فى الداخل والخارج وتدع كل شىء بعد ذلك للأفراد .

ويقول آخرون : لا بد للدولة أن تقوم بكل شىء فى كل مجال من حفظ الأمن حتى أكشاك بيع الفول والطعمية . وكلا الفريقين ينطلق من منطلقات أيديولوجية معروفة .... وكلاهما يقيس حياتنا بمقياس الغير .

ونحن نؤمن أن كلا الفريقين قد تجاوز القصد فيما ذهب إليه .... والأمر يحتاج إلى تناغم بين دور الدولة ودور الفرد لتقوم الدولة بدور العقل وليقوم الأفراد بعمل الجوارح فى غير تعارض ولا تصادم .

الفصل العاشر

التقليد واستنبات التكنولوجيا

يضرب الناس الأمثال بأهل اليابان عندما يأتى ذكر للتقليد الصناعى حتى شاعت نكتة عنهم تزعم أن رجل أعمال يابانى أعطى مصنعاً يابانياً قلم حبر لتقليده ، فلما انتهى المصنع من مهمته وجد رجل الأعمال أن القلم لا يكتب فلما اشتكى الأمر للقضاء وحُقق الأمر وجدوا أن المصنع قلد القلم الأصلى تماماً .... فلقد كان القلم الأصلى لا يكتب .

وإن كانت هذه نكتة فإن الواقع أغرب من الطرائف والنكت .... ويحكى التاريخ الصحيح أن تجار السلاح الأوروبيين كانوا يمرون بسفنهم على بلاد الشرق الأقصى فى القرن التاسع عشر . وفى عام مروا على بلاد الملايو التى يقطنها المسلمون وباعوهم أسلحة كثيرة ثم مروا على اليابان وباعوهم بعض الأسلحة ، وفى العام الثانى مروا على الملايو فطلبوا مزيداً من الأسلحة ، أما اليابانيون فلم يشتروا شيئاً منهم .... لقد قلدوها وصنعوها ولم يعودوا فى حاجة لشرائها .

وفى مقالاته فى مجلة أكتوبر القاهرية يحكى الدكتور حسين مؤنس عن اليابانى الذى كان مبعوثاً فى أوائل هذا القرن للحصول على الدكتوراه فى الهندسة ثم وجد نفسه يضيع وقته وجهده فى دراسات نظرية لا طائل منها وكيف أنه وزملاؤه المبعوثين أغرقوا أنفسهم فى المعادلات والتحليلات فقرر بينه وبين نفسه أمراً . سأل نفسه ما هو مفتاح التكنولوجيا الغربية فى هذا الوقت وأجاب بأنه الموتور إذاً فليعد لليابان بسر صناعة الموتور . واشترى موتوراً من ماله الخاص الذى يأكل به وعكف عليه يفكه قطعةً قطعة وكلما فك قطعة رسَمها ورقَمها حتى فك الموتور كاملاً ، ثم أعاد تركيبه وأعاد ذلك عدة مرات حتى أدرك كل أجزاء الموتور ووعاها . ثم عاد للكتب يتفقه فى بعض النظريات الحاكمة لعمل الموتور وأراد بعد ذلك أن يعمل فى بعض المصانع التى تصنع الموتور فذهب إليها عاملاً يكتشف فى

هدوء أسرار صناعة الموتور ودقائقها . ولما أيقن أنه يعرف أسرار هذه الصناعة وما بقي إلا أن ينقلها لليابان كتب للملحق الثقافى اليابانى بقصته فنقلها هذا بدوره لوزير التعليم والذى نقلها للإمبراطور ، وبعث له الإمبراطور بخمسة آلاف جنيه ليشترى كل ما يلزمه من معدات لصناعة الموتور اليابانى ، ولما عاد طلب الإمبراطور مقابلته فاعتذر حتى يزروه ومعه الموتور اليابانى ، ولما فرغ من مهمته بعد عدة سنوات ذهب لزيارة الأمبراطور ومعه عينة من هذه الموتورات التى استمع إليها الأمبراطور فى نشوة قائلاً : هذه أعذب موسيقى سمعتها فى حياتى .

هذا اليابانى العظيم لم يَعُدْ لليابان بالدكتوراه ، وإنما عاد إليها بعزتها ومجدها .... عاد إليها بتقليد مفتاح الصناعة الأوروبية وعاونه على ذلك الملحق الثقافى ووزير التعليم والإمبراطور ولم يحاولوا أن يخذلوه أو يتهموه وإنما ساعدوه وشجعوه .

لقد أدرك هذا اليابانى أهمية التقليد الصناعى فترك من أجله الدكتوراه واكتفى بما تعلمه من نظريات تكفيه لنقل سر الصناعة ولم يكن الإدراك عند هذا الفرد اليابانى يكفى للوصول إلى الغاية إذا لم تتكاتف معه الثقة ويؤازره الوعى والوطنية عند الملحق الثقافى والوزير والإمبراطور .

أين كانت اليابان من بلد عربية مسلمة كمصر منذ أكثر من قرن ... كانت مصر أكثر تقدماً منها حتى أنهم أرسلوا بعثة فى تلك الفترة للوقوف على أسباب سبق مصر لهم . ثم انظر وتبصر حال عالمنا العربى وحال اليابان اليوم !! . والحق أن التقليد الصناعى من أهم الدروب التى ينبغى أن تسلكها الشعوب فى استنبات التكنولوجية الوطنية .... وما فعله اليابانيون يجب أن يصبح نبراساً لكل شعوب العالم الثالث تترسم خطاه وتمضى على هديه فى سعيها للتصنيع .

وللأسف الشديد فإن التقليد الصناعى يكاد أن يختفى تماماً من حياتنا الصناعية . فالصناعة فى بلادنا تعتمد طريق رخص الإنتاج لا تحيد عنه . ولقد تعقدت عقود رخص الإنتاج تعقيداً يستحيل معه نمو الصناعة الوطنية ، وأصبحت شروطها معوقة تماماً لأى استنبات تكنولوجى . أنظر إن شئت لمصنع سيارات عرف كمصنع نصر للسيارات .... فبعد أكثر من عشرين عاماً على بدء إنتاجه

ما زال هذا المصنع يعتمد على رخص إنتاج فى كل شىء حتى فى مواسير العادم التى يصنعها السمكرية فى ورشهم الصغيرة . إن الدول الكبرى عن طريق المنظمات الدولية تُدخل الشعوب الصغيرة فى معاهدات صناعية لحماية صناعاتها من محاولات التقليد . وأحسب أن ذلك عبثاً يجب أن نحيد عنه .

نعم .... يجب أن نحصل على رخص إنتاج ولكن لا بد أن تكون الفلسفة الصناعية أن تقوم رخصة الإنتاج بدور الشرارة الأولى ومن أجل ذلك لا بد أن يكون فى المصنع جهاز تقليد على أعلى مستوى تقنى وعلمى وأن يكون هذا الجهاز متصلاً بالجامعات ومراكز البحوث ليوزع عليها بحوث التقليد ومشكلاته وفى نفس الوقت تحاسب الإدارة العليا فى المصانع حسب برنامج زمنى لا بد أن تنهى خلاله الاعتماد على رخص الإنتاج وتعتمد بعده على التقليد ثم الابتكار .

وفلسفة التقليد تقوم أساساً على فهم كامل للوظائف التى تقوم بها الأجزاء المختلفة لمنتج ما مجتمعة أو متفرقة ونظريات هذه الوظائف ونوعيات المواد المختلفة المطلوبة لهذه الأجزاء وخصائصها الطبيعية والميكانيكية . فإذا ملكنا معرفة النظام ومعرفة جيدة عن وظائف أجزائه وتوقعنا ضرورة وجود خصائص طبيعية وميكانيكية معينة لهذه الأجزاء نكون قد حصلنا على جزء كبير من المطلوب معرفته . ولكن ستظل هناك خبايا تقنية تعتبر من دقائق التكنولوجيا الحديثة وليس الحصول عليها بسهل أو ميسر حتى لو أخذنا رخص إنتاج .

فمثلاً إذا كنا نعرف أن جزء من المنتج يجب أن يؤدى وظيفة معينة بمواصفات معينة تحتاج إلى خواص بعينها .... هذه المعرفة تمكننا من توقع مادة هذا الجزء أو بدائلها فى حدود ٩٥٪ بطرق معروفة فى علوم المواد .... ولكن سيبقى هناك آثار وإضافات فى هذه المواد لا يمكن أن تُعرف إلا بمحاولات معملية حتى نصل إلى الصفات المرجوة .

ولا بد على المُقلد كذلك أن يجرى بحوثاً تطبيقية لدراسة النواحى الوظيفية من حيث المتانة والاعتمادية والعمر الافتراضى على المنتج المُقَلد . ولقد شاهد بعض زوار اليابان عندما زاروا مصنعاً للسيارات هناك باب سيارة أمريكية تحت الاختبار ليقيسوا عمر الباب وعمر أجزاءه المختلفة .

التقليد والفجوة التكنولوجية والعلمية :

فى المجتمعات الصناعية أو ما بعد الصناعية تتولد الأشياء والماكينات بسرعة مذهلة . من أجل ذلك ، وفى بلاد كبلادنا والتى تفصلها فجوة كبيرة علمية وصناعية عن هذه البلاد الصناعية يجب أن نمتع أنفسنا بفترة حضانة بعيداً عن هذا التسارع المذهل فى عالم ما بعد الصناعة ، ونحتاج حينئذ إلى ترشيد علمى للاختيار الذى نختاره فى عمليات التقليد أو حتى رخص الإنتاج .

فهناك صناعات أساسية ومنتجات بذاتها نستطيع باختيارها وتقليدها أن ننبت فى بلادنا التكنولوجيا المعاصرة .

ولن يحمينا من هذا التسارع الرهيب فى عالم ما بعد الصناعة إلا عدة أمور أهما الاختيار النفسى لمنهج الحياة الكلى والذى يحد من حبنا للتكاثر واللهث وراء أشياء لم تصنعها أيدينا . ومنها أن نركز على تقليد أدوات الإنتاج الضرورية قبل أن نقلد الأشياء الترفيهية ومنها أن يكون التقليد موجهاً لاستغلال الطبيعة المحيطة .... فمثلاً عندما تتوفر الشواطىء والبحيرات والثروة السمكية يجب أن تتجه الجهود إلى تكنولوجيا الصيد كمصدر أساسى من مصادر العيش ومن هنا يجب أن نهتم بتقليد كل أدوات الصيد .

وينبغى أن نعلم أن لكل تكنولوجيا مناخاً علمياً يجب أن يكون متوفراً فى المُقَلد . صحيح أن التكنولوجيا شىء والعلم شىء آخر .... جسدان معنويان مختلفان . ولكن كل مستوى تكنولوجى يستلزم مستوى علمى كمناخ محيط به . وهذا بالطبع يحد من الطموح الواهى لكثير من الشعوب الحابية والتى ما زالت تعانى من أمية غالبة والتى تسعى أول ما تسعى للتعامل مع تكنولوجيات متقدمة .

ولا بد أن تخطط الدولة لمستويات علمية وتكنولوجية متعاقبة .... تخطو من واحدة إلى أخرى فى وثوق واطمئنان مدركة لدورها كمنظم ورابط للجهود الصناعية المختلفة فى الأمة سواء قام بها الأفراد أو قامت بها الدولة نفسها . فتسعى الدولة مثلاً إلى تحليل المنتجات الصناعية المطلوبة إلى عناصر والعناصر إلى عناصر أقل منها حتي تحصل على عناصر ذات أهداف عامة وتُنتج فى الغرب بكميات كبيرة وتباع جهراً فى أسواق الصناعة العالمية بأسعار معروفة .

فتسعى الدولة حينئذ إلى توفير هذه العناصر فى الأسواق المحلية وتقدم لمن يريد دراسات عن الصناعات المطلوبة وطنياً وفى نفس الوقت تعد الأمة تعليمياً لتصل بها إلى مستوى علمي يناسب المستوى التكنولوجى المرجو .

فإذا اندفعت الأمة حكومة وأفراداً فى التعلم والتصنيع حتى بلغت المستوى المرجو بدأت الدولة فى التخطيط لمستوى آخر علمى وتكنولوجى . هذا الدور للدولة يجب أن يصبح مادة بحث فى مراكز البحوث والجامعات ويجب أن لا يُترك فى أيدى السياسيين والاقتصاديين وحدهم .... فما نحن فيه اليوم من فوضى علمية وتقنية هو نتيجة حتمية لتركنا جهود التخطيط فى هذا الميدان فى أيدى السياسيين والاقتصاديين وحدهم .... ولا بد أن نبحث من جديد فى هيكل المنظومة البشرية اللازمة للتخطيط الرائد لمستويات العلم والتكنولوجيا المتعاقبة ودور التقليد فى استتباتها ... هذا .... أو .... سنظل واقفين .

الفصل الحادي عشر

دور الترجمة

الترجمة هي إحدى الأدوات الأساسية (للوصل العلمي والتكنولوجي) للملايين من الناس في أمتنا المقطوعين عن التكنولوجيا والعلوم الحديثة في الحضارة العالمية المعاصرة . ومع ذلك فإن موضوع الترجمة لم يلق العناية الجديرة به وإنما تُرك لأهواء التجار أو للجهود الفردية المبعثرة . وحتى عندما قامت بعض الحكومات بتنظيم حملات مكثفة للترجمة لاحظنا أيضاً أنه لم ينفق وقت كاف ولا جهد كاف لتحديد الفلسفة الأساسية وراء مشاريع الترجمة ولذلك كانت ثمرات هذه المشاريع قليلة للغاية .

فمشاريع الترجمة في معظم الأحيان مشاريع غير واضحة الوِجْهة بالنسبة لنوعية المستعمل من حيث عمره وثقافته وتكوينه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . ومع هذا التيه أمام المستعمل العربي فإن مشاريع الترجمة تنقل « كائناً اجتماعياً أجنبياً » للغة العربية فتزداد عملية التيه كنتيجة حتمية لعدم ضرورة وجود أنماط عربية متماثلة مع الأنماط الغربية التي وضعت من أجلها هذه الكتب المترجمة . ثم أننا في مواجهة تغير متسارع وفي عالم التكنولوجيا والعلوم . متسارع حتى في الحصيلة اللغوية المستحدثة والشائعة في عالمها الغربي حتى لقد قيل أنه لو بُعِثَ شكسبير اليوم لاعتبر « نصف أمي » .... ذلك لأن نصف اللغة الإنجليزية المستعملة اليوم لم تكن معروفة على زمن شكسبير .... إنها استحداث علمي وتكنولوجي . فيقول العالم اللغوي ستيوارت بيرج فليكسنر كبير المشرفين على إعداد معجم راندوم هاري للغة الإنجليزية « إن الكلمات التي نستخدمها تتغير اليوم بسرعة أكبر – ليس فقط بالنسبة للكلمات الدارجة ولكن أيضاً بالنسبة لكل مستويات اللغة . إن السرعة التي أصبحت تظهر بها الكلمات وتختفي قد زادت بشكل حاد ، وما يصدق على اللغة الإنجليزية في هذا الشأن يصدق أيضاً على الفرنسية والروسية واليابانية »

ويعلق ألفين توفلر مؤلف كتاب « صدمة المستقبل » على قول فليكسنر فيقول « هذا التغيير فى اللغة إنما يعكس فى الواقع التغييرات التى طرأت على البيئة نفسها ، فى الأشياء وفى ألوان النشاط وفى النوعيات . إن بعض الكلمات الجديدة ينبثق مباشرة من دنيا السلع الاستهلاكية وتكنولوجيتها كما أن الحركات الجماهيرية مثل حركة الحقوق المدنية وحركة المعارضة لحرب فيتنام تستحدث كلماتها المعبرة الجديدة تماماً على اللغة . كما أن لكل من فئة الهيبيين ومدمنى عقار الهلوسة تعبيراتهم التى خلقوها خلقاً » .

ويقول أيضاً « إن التغيير لم يقتصر على حروف الكلمات فقط بل تعداه إلى مدلولاتها » .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الكتب فى الغرب قاربت من حيث رسالتها المجلات الشهرية ذات العدد الواحد ، أدركنا أننا يجب ونحن نقف عند الحد الأدنى من الفجوة العلمية والتكنولوجية أن نعيد النظر فى قضية الترجمة بعمق أكثر . فليس من المعقول أن نتابع أعمال الحد الأعلى من الفجوة ونعكف على ترجمة هذا التيار المتسارع فى محتواه اللغوى والعلمى . إننا فى هذه المقدمة نطرح ملاحظة تحتاج إلى بحث أكبر ، أنها ملاحظة حول عمق الفجوة التكنولوجية وعمق القطاع الذى يجب أن يتعلم اللغة الأجنبية ذاتها ففى ترجمة الاستطلاع (كما تفعل أمريكا) لا تحتاج الأمة إلا إلى مجموعة من الخبراء يستطلعون لها ما تريد من أمم أخرى .... أى أن عمق القطاع يكاد يكون معدوماً .

وفى ترجمة المواكبة (كما يحدث فى أوروبا مثلاً) تجد عمق القطاع أكبر لوجود فجوة صغيرة بين أوروبا وأمريكا .

أما فى ترجمة التخلف (كما فى بلاد العالم الثالث) فسوف نجد عمق القطاع الذى يعرف الإنجليزية فى الدرجة الأولى أو الفرنسية فى الدرجة الثانية أكبر بكثير .

ويبدو أن هناك عمق مثالى يحتاج لبحث أكبر .

ومن هنا فإن المناداة بالتعريب الشامل تبدو مسألة تحتاج إلى نظر بعيد فى وجود الفجوة التكنولوجية والعلمية القائمة .

ولا مجال هنا للمقارنة بين مشاكل الترجمة فى وضعنا الحضارى الراهن وبين مشاكلها فى حركتها الأولى أيام الخلافة العباسية .

فالترجمة على أيام العباسيين كانت تنهل من منهل ثابت غير متغير فلم تكن هناك حركة علمية عند الرومان أو عند غيرهم .... كانت الحضارات القديمة قد توقفت عن العطاء وأمسكت عن النمو . ثم أن العرب كانت لهم اليد العليا فى هذا العصر وتدين لهم الدنيا من حولهم بالولاء والطاعة .

أما اليوم فأوضاع غير الأوضاع وأحوال غير الأحوال . فنحن محاطون من كل جانب بحضارة أعجمية باسقة الزروع وارفة الظلال . ونحن فى حاجة أن ننتقى من بستانها ثمرات نافعة لنا تصل الطبقات الوسطى الفقيرة بعلوم وتقنيات وأفكار حياتية نافعة .... وفى سعينا هذا لا بد أن نبحث فى أمور عدة :

لا بد أن نبحث فى ديناميكية لغتنا العربية وقدرتها على الاستيعاب والتطور .

ولا بد أن نبحث فى هيكل الطاقة البشرية لنحدد الثغرات التى يمكن أن تسهم لترجمة فى ملأها .

ولابد أن نبحث فى التوضيب الاجتماعى للكتاب .... فكل كتاب فى الغرب وضع لطائفة بعينها دون غيرها وربما كانت هذه الطائفة غير موجودة فى مجتمعنا فتصبح ترجمة الكتاب مضيعة للوقت والجهد والمال .

ولا بد أن نبحث كذلك فى احتمالية استخدام الآلات الحاسبة فى الترجمة ، وكذلك فى الطاقة البشرية المطلوبة لإنجاز هذه الأعمال .

ولا بد أن نبحث كذلك فى تعريب التعليم .... وحدوده .... وهل نعرب كل التعليم الجامعى أم ماذا ...

أى نبحث فى نظرية العمق والفجوة والتى تعرضت لها منذ قليل . ولا بد أن نبحث فى قنوات التدفق اللغوى فى مجتمعاتنا العربية من خلال الإعلانات والإعلام والجامعات ومجامع اللغة العربية .

وحسبى ما قلته هنا الآن ، وسيجد القارىء أننا عالجنا كثيراً من هذه البحوث فى كتاب مستقل يظهر قريباً بإذن الله ممثلاً لمشروع فى الترجمة تبناه مكتب التربية العربى لدول الخليج .

الفصل الثانى عشر

منظومة الصيانة فى دولة نامية

مقدمـــة

الصيانة هى المعمل الحضارى الأول لتعليم الأمة مبادىء التكنولوجيا وهى الآداة الأساسية فى ارتيادها دروب التصنيع .

ومع ذلك فالشعوب النامية غافلة أشد الغفلة عن البحث فى إقامة منظومة الصيانة وتشييدها .... ومع الوقت يصبح إنشاء هذه المنظومة أكثر صعوبة علماً واقتصاداً وتتعقد وسائلها ومناهجها بطريقة متسارعة فى دروب التخصص الدقيق المتقدم حتى ليظن العالمون أن الأنواع الجديدة من الصيانة المتقدمة أضحت تفرض على الشعوب النامية قيوداً عنيفة تمس سيادتها وأمنها فى الصميم .

وانظر إن شئت إلى إحدى شركات الطيران العربية التى كانت قد اكتسبت مهارة صيانية وصلت بها إلى القيام بحوالى ٧٠٪ من أعمال الصيانة الخاصة بطائراتها بقدرة ذاتية .... ولكن الطائرات الحديثة وما أملته من شروط فى الأمان والأداء انتكست بهذه الشركة من ٧٠٪ إلى ٢٠٪ من أعمال الصيانة .

الواقع المُر هو أن الصيانة فى معظم البلدان النامية قضية عشوائية لا تنتظم داخل منظومة ولا يحيط بها فكر مدبر لإعدادها سواء بالنسبة للدولة أو بالنسبة للأفراد .

والحق أن هموم الصيانة بالنسبة للشعوب النامية تغاير تماماً همومها فى البلدان الصناعية . ففى البلدان الصناعية يتنازع الصيانة اتجاهان :

اتجاه الزوالية فيما يتعلق بنزعة الإنسان الغربى إلى التغيير والتبديل والاستكثار .

واتجاه الاعتمادية فيما يتعلق بالأمن والأداء فى أدوات الحرب وسفن الفضاء .

والمجتمع الغربى الصناعى يبحث عن حل وسط بين هذين الطرفين المتنازعين حيث يملى الأول اتجاهاً إلى عمر زوالى قصير ويملى الثانى اتجاهاً إلى عمر زوالى طويل .

ولنقرأ معاً هذه الكلمات من كتاب « الدبابات ... دقيقة وعظيمة « "Tanks are mighty fine things" » للعالم الأمريكى ويزلى ستوت « (Wesley Staut) حيث يشير إلى أن « الاعتمادية » فى صناعة الدبابات الأمريكية هى التى هزمت الألمان . يقول ستوت :

لقد كان للألمان مهارات عالية وعبقريات عظيمة ويملكون أحسن الأدوات وما كانت تنقصهم المواد . ولقد سبقونا فى كثير من الأحوال فى تحسينات أساسية . ومع ذلك فهم يعللون هزيمتهم نتيجة لتفوقنا العددى والمادى . ولقد كان لنا هذا التفوق المادى والعددى ولكن ذلك لم يكن السبب الوحيد .... إن دباباتنا كانت الأفضل .... وكانت الأفضل لأن الألمان ما تعلموا قط أن يفكروا من منطلق الاعتمادية "Reliability" كما كنا نستخدم الكلمة للتعبير عن مبدأ أساسى « الأداء الأعظم مع الرعاية والتغيير القليلين » .

أما الشعوب النامية فمقاصد الصيانة فيها أمران هما : حفظ الطاقة القومية واستنبات التكنولوجيا ولن نخطو فى هذا الطريق خطوات صالحات حتى يتم تصميم منظومة الصيانة تصميماً يرشد الجهد الحكومى وجهد الأفراد فى تناغم يحقق المقاصد المرجوة من غير تفريط ولا إفراط . فلا بد من صياغة دور الدولة فى المنظومة ليحقق مجموعة من الأهداف المتداخلة والمتكاملة مثل صياغة القوانين والنظم التى تحكم :

١ — استيراد الأشياء وحق الصيانة .

٢ – ملكية الأشياء وضرورة تعلم الصيانة الأولية والامتحان فيها كشرط من شروط الملكية أو. باختصار التشغيل وحق الصيانة .

٣ – حجب الإنسان العربى عن تدفق « بضائع الزوالية » من الغرب حتى نتيح لهذا الإنسان قدراً من الوقت للتعامل مع « بضائع بطيئة » يصونها ويتعلم منها الجديد .

٤ – فرض قوانين على المصانع الوطنية بعمل كتب صيانة واضحة للمستعمل .

وكذلك تستطيع الدولة أن تلعب دوراً هاماً فى منظومة الصيانة عن طريق الجهاز التعليمى . فنحن أمة سنظل نعيش على الاستيراد الصناعى لفترة قادمة غير قصيرة . وفى مثل هذه الظروف تلعب الصيانة دوراً أساسياً وجوهرياً فى حفظ الطاقة القومية وفى استتبات التكنولوجيا . فإذا وضحت هذه الحقيقة الأساسية ظهر لنا قيمة إعادة النظر فى كل مناهجنا التعليمية لتخدم منظومة الصيانة . فالدراسة الأولية لمناهجنا التعليمية سواء ما قبل الجامعة أو ما بعدها تُظهر بوضوح أن الصيانة ليست وجهة ولا هدفاً من أهداف العملية التعليمية . وبالطبع لن يتطلع بهذه المهمة فى الدولة إلا المشتغلون بالتعليم سواء كانوا فى الجامعات أو فى غيرها . وبجانب النظر فى المناهج جميعها لتتخذ لنفسها وجهة صيانية لا بد من إعداد مجموعة من المناهج على مستوى البكالوريوس ومستوى الدراسات العليا تهتم بالصيانة كعلم وتثير فى الطلاب والأساتذة الرغبة فى بحوثها حتى تصبح المفاهيم الصيانية التى تتمخض عنها الدراسات المختلفة شائعة بين أكبر قدر من التقنيين الذين سيديرون دفة الصناعة فى أجيال مقبلة .

وليتذكر القارىء أن كل ما ذكرناه حتى الآن يحوم حول حمى الصيانة ولم يقع فيه بعد .... ولقد ذكرناه من قبل لأنه بدونه لن تقوم لمنظومة الصيانة قائمة .... فمن غير قوانين حاكمة وتعليم وتدريب يوفر الطاقة البشرية المدربة وإدارة محيطة بأبعاد العملية الصيانية ودورها الحضارى .... من غير ذلك يصبح كل جهد فى الصيانة ضائعاً وتتعارض الجهود وتصطدم المصالح . من أجل ذلك ذكرنا هذه الدراسات المطلوبة أولاً لتحديد هيكل منظومة الصيانة وتحديد مصادر طاقتها

البشرية من خلال التعليم والتدريب وإذا جاز لنا أن نستخدم تعبيراً شائعاً فى الحاسبات الإلكترونية فسنقول أن المشاريع السابقة مشاريع « لينة » وبقى أن نذكر المكونات « الصلدة » لعمليات الصيانة . فخدمات الصيانة أربع : خدمات الإصلاح والتجديد – خدمات الصيانة الدورية والوقائية – خدمات التركيب والتشغيل – خدمات التدريب واكتساب المهارات الخاصة .

إننا نستطيع تلخيص المهمة المطلوبة فى تحديد نماذج مؤسسات الصيانة فى عدة أمور :

أ – دراسة نوعية الصيانة المطلوبة وحجمها فى فترة مستقبلية معينة .

ب – دراسة واختيار أمثل لمجموعة من النماذج التى يمكن إقامتها سواء على مستوى الأفراد أو مستوى المنشآت أو مستوى الحكومات .

جـ – دراسة واختيار أمثل لمجموعة من الخيارات التعليمية والتدريبية .

الفصل الثالث عشر

مركز الدراسات الحضارية

تراءت لى منذ أن كتبت هذه الفصول من كتاب المقدمات فى مشاريع البعث الحضارى الضرورة الملحة أن تتكاتف الجهود من أجل إقامة مركز للدراسات الحضارية يخدم عمليات البعث الحضارى فى الأمة الإسلامية ويُرشّد جهود المصلحين فيها . فلا يكفى ما يقدمه فرد هنا أو فرد هناك ، إذ لابد أن تتضافر الجهود فى إطار مؤسسة تقوم على رعاية البحوث ووضع أولويات العمل الإصلاحى وربط الجهود المتناثرة هنا وهناك . ولقد كان هذا حديثنا متصلا بينى وبين كثير من الإخوة المشتغلين بالإصلاح وأخص منهم أخى الأستاذ عبد الحليم محمد أبو شقه والدكتور كمال أبو المجد والدكتور محمود سفر والدكتور أحمد العسال والدكتور يوسف القرضاوى وغيرهم من أهل الغيرة الإصلاحية . ثم رأيت أن أجمع شتات حوارنا الطويل فى رسالة موجهة للقادرين على المساهمة فى إنشاء هذا المركز المرتقب ، وسوف يجد القارىء فى الصفحات التالية الفلسفة الأساسية التى سيقوم عليها المركز .

١ - مقدمة حضارية

« دعوة لاستنفار أولى بقية ينهون عن الفساد فى الأرض » .

- يهتم هذا المركز بالدراسات والبحوث اللازمة لتحديد خريطة الأعمال الحضارية اللازمة لعملية البعث الحضارى المرتقب وكذلك دراسة المواصفات البشرية اللازمة للقيام بهذه الأعمال وإثارة الوعى عند ذوى التوجيه الاصلاحى لحثهم على التدافع إلى مواقعهم فى خريطة الأعمال الحضارية .

- ولابد أن نذكر هنا أن خريطة الأعمال الحضارية لا تتطابق بالضرورة مع خريطة الأعمال القهرية التي أحاطت بنا من خلال عمليات التسرب القهرى من الحضارة الغربية الطاغية. والتى غيرت نظامنا التعليمى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى ومن ثم أوجدت خريطة للأعمال تختلف تماماً عن خريطة الأعمال التي استقرت لقرون فى مجتمعنا واستقر فيها نظام حياتى نعيش به حياتنا عسراً أو يسراً ، والذى مازالت بقاياه قائمة بيننا فى مجموعة من الأعمال التى تفسح كل يوم مكانها للوافد القاهر .

- أى أنه تحت ضغط الحضارة المحيطة بنا وبمساعدة نظام تعليمى مختل ومع ضعف التحدى الحضارى اضطربت خريطة الأعمال فى بلادنا وأصبحت مزجاً من قديم وحديث . فخريطة الأعمال الأولى كانت نتيجة التطور للمجتمع حيث نشأت متناغمة مع حياته الذاتية فى الاقتصاد والاجتماع والسياسة وكان مفهوم التنمية هو « تنمية البقاء » ثم قفز مفهومها إلى « التنمية الضاغطة » بنماذجها المتعددة . حيث ظللنا ننتقل من واحدة إلى أخرى وأخيراً اختلطت جميعها فى نظام مرقع لايسمن ولا يغنى من جوع .

- ومن هنا فإن تدافع الجماعات الإصلاحية فى تحقيق خريطة الأعمال القهرية هو تدافع يفتقد الأصالة التى يجب أن يتم بها أى جهد إصلاحى يبذل .

- إذ ينبغى أن يعمل بعض أولى الفكر من هذه الجماعات جادين من أجل بلورة أهداف تنموية وتربوية متميزة تتسق مع عالم غيبنا الذى نؤمن به .

- ولا يعنى ذلك عزلة هؤلاء النفر عن الحياة الصاخبة من حولهم ، وإنما نعنى أن يستلوا أنفسهم من هذا الصخب التنموى فى أوقات معدودات يسترجعون فيها حركتهم فى الحياة وما يمكن أن يفعلوه فى مستقبلهم مما يتسق ووجهتم الإصلاحية .

- أننا نشعر أن التوجهات الإصلاحية عند الغالبية العظمى من المشتغلين بالإصلاح تحتاج إلى توجيه متصل وإلا ضاعت على الأمة كنوز من الطاقات

تذهب هدرا فى عشوائية التحرك الإصلاحى الذى يفتقد الاتصال والترابط .

- ولأن كل الحركات الإصلاحية « ثورية أو سلمية » تنبعث من واقع الأمة المضطرب والمتخلف فإنها فى حاجة ماسة إلى ترشيد جهودها من خلال أولى بقية يسعون لعمل وتحديد خريطة للأعمال الحضارية ويوجهون إليها إخوانهم إذا رجعوا إليهم .

- ولابد أن نؤكد أن هذه الخريطة يجب أن تتوزع أعمالها بين الحكومة والمجتمع . ونعتقد أن من أهم معضلات التنمية والإصلاح فى العالم الثالث غياب الوعى السليم عما هو من واجبات الحكومة ، وعما هو من واجبات الأفراد والجماعات ، ومن هنا فإن أهم الواجبات الفكرية التى تحتاج إلى جهد عظيم هو التوزيع الواعى لخريطة الأعمال الحضارية بين الدولة والأفراد والجماعات . والالتزام التام بما تحتوى عليه هذه الخريطة من واجبات .

- ولابد أيضاً أن نتذكر أن أى عمل حضارى يتألف من عدد من المكونات بعضها عقائدى وبعضها قومى وبعضها فنى . ولا شك أن للعقيدة الدور الأول فى حث الإنسان على الاندفاع للقيام بهذا العمل ، بينما يشترك أفراد الأمة الواحدة فى الخصوصية القومية لجميع الأعمال ، ويبقى بعد ذلك الجزء الفنى محتاجا لكل الجهود مهما تعددت عقائدها ، مادامت كلها تحفز الإنسان والجماعة للقيام بهذا العمل .

ولذلك فإن دوراً فكرياً هاماً يتعلق بتحديد هذه المكونات للأعمال ، وتوضيح أجزائها القومية والفنية المشتركة ، ولا يقوم بهذا الدور إلا الصفوة من أهل الفكر يتفرغون له فيخلصون أمتهم من الصدام العقيدى الداخلى ويحفظون جهود الأفراد والجماعات للعمل المثمر الخلاق .

- ويجب أن يتضح لنا أن خريطة الأعمال الحضارية خريطة ديناميكية . ولكن جزءاً من هذه الديناميكية مدمر يجب مقاومته بينما يبقى هناك جزء حى يتغير بتغيير الظروف وما يطرأ على البيئة من متغيرات ، ومن ثم يحتاج الأمر إلى

بحوث دائمة ومتصلة من أهل الفكر .

- ومنذ تعرضت الأمة للاستعمار وهو دائب السعى ظاهرا وباطنا على خلق معارك وهمية متعددة الاتجاهات ، قاصداً بذلك تبديد الطاقات الخلاقة عند ذوى الفكر وصرفها عن الاتجاه السليم نحو الإصلاح وهو فى سعيه هذا ماكر خبيث شديد الدهاء بما يملك من أجهزة شيطانية تستخدم أدوات علمية تتناول فى معاركها ألواناً شتى من العلماء والأدباء والسياسيين والاقتصاديين والاجتماعيين باسم العلم والتقدم مسلطة عليهم غائلة المال أو الجاه أو الجنس ولهذا فإنه ينبغى على ذوى الفكر الإصلاحى الحضارى أن يواجهوا هذا المكر بمكر مثله ، وأن يقفوا له بالمرصاد مدركين لغاياته ، نابذين لأساليبه ومراميه .

- ولتصبح هذه المجموعة من أهل الفكر قادرة على استيعـ . روح الزمان والمكان ولا ينبغى أن تشغل نفسها بالأحداث الصغيرة الجارية إلا بالقدر الذى يؤثر على فهمها لطبائع الأمور الكلية . ذلك أن كثيراً من هذه الأمور الجارية ما هى إلا مظاهر لترتيبات أحكمت من قبل ولا تملك معها الأمة إلا الصبر على الجهاد والصمود من أجل جولات وجولات وجولات فى المستقبل .

- ولا خيار عند أهل الفكر فى المعاصرة، غير أنه ينبغى أن تمعن النظر فى ترتيب أولوياتها . كما فعل غيرنا ، فالمجتمع الروسى يعيش حياة معاصرة بمقاييس الحضارة الغربية العالية ولكن أولويات المعاصرة عند الإنسان الروسى مختلفة عنها عند الإنسان الأمريكى . ولذلك كان لزاما على أهل الفكر أن ينظروا فى أولويات المعاصرة عندنا ويبصروا الأمة أفرادا أو جماعات بهذه الأولويات اللازمة لتحقيق هذه المعاصرة .

- فلاجدال فى أن هناك شروطا موضوعية للهيكل السياسى يمكن أن يقبلها المصلحون ، ولكن هذه الشروط إذا خرجت عن موضوعيتها يصبح العمل الإصلاحى الحضارى ضرباً من العبث لا يمكن أن يؤدى إلى الإصلاح المنشود . على أنه لا ينبغى أن ترتكز صناعة القرار فى أيدى مجموعة من الأفراد

تعد على أصابع اليد الواحدة بينما تحرم الأمة بكل عقلائها ومفكريها من أن تدلى بدلوها فى شئون حياتها لأن الاستئثار بالقرار يعتبر عائقاً يحول دون أن يثمر أى عمل إصلاحى حضارى ثمراً يانعا .

- مما نشاهد فى عالمنا الثالث أن الحرية كل الحرية لأفراد فى قمة السلطة بينما كل المؤسسات مكبلة بقيود لا تستطيع منها فكاكا .

وأعتقد أن من أولى مهام أهل الفكر أن ينظروا فى أمر الهيكل السياسى اللازم ويفصلوا أمره تفصيلا ليثمر العمل الإصلاحى الحضارى ثمرته المرجوه وما قلناه عن الهيكل السياسى ينطبق أيضاً على الهيكل الاقتصادى والهيكل الاجتماعى .. إذ أن هناك شروطا موضوعية لابد من توفرها فى هذه الهياكل جميعاً وتحتاج إلى جهود عظيمة لبحثها وتبصرة الأمة بها . وخلاصة القول أن الأمة فى حاجة إلى أن تستجمع عقلها الواعى فى أولى الرأى يجتمعون على كلمة سواء مما ذكرناه آنفا ، ويهبون جزءاً مما أفاء الله عليهم من فكر ووقت ومال ليحققوا لأمتهم وجهتها فى الإصلاح الحضارى بجناحيه التربية والتنمية .

ولقد أدى غياب هذا الفكر التوجيهى فى مجال الإصلاح إلى كوارث متلاحقة على مستوى الدولة والأمة ونعتقد أنه قد أصبح فرض عين على القادرين من الأفراد والجماعات والحكومات أن يهيئوا المناخ لتجمع من هذا النوع وليوفروا له كل ما يحتاج إليه من أسباب النجاح .

وها نحن ندعو إلى الفكرة .. فإن تهيأت لها القلوب والعقول فإن ترجمتها فى مؤسسة علمية ليست بالأمر الصعب .. فنحن لسنا فى حاجة إلى مبان وتجهيزات بقدر حاجتنا إلى توفير الضروريات لمجموعة من الرجال يعملون فى مواقعهم ، ويحملون أفكارهم لأمتهم من خلال طرائق إعلامية مختلفة ، وبقدر تفاعلهم مع احتياجات أمتهم يكون توجيههم عظيما ، ونفعهم جليلا .. ويبقى من قبل ذلك ومن بعده فضل الله ورحمته وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر .

ولو شاء لهداكم أجمعين

٢ - آفاق البحوث المرتقبة :

- هندسة الفكر الاجتماعى

النظر فى كل المنظومات الحاكمة فى المجتمع الحديث باستخدام منهاج للنظر يستلهم روح الإسلام فى كل منطلقاته الغيبية والعقلية ويستخدم التقنيات السائدة فى العلوم الحديثة . بل أن توجه البحوث فى فلسفة منهج النظر الإسلامى أمر بالغ الأهمية حيث فقدت العقلية الإسلامية منهجها الراشد فى النظر وانحدرت لعشوائية مدمرة .

ومن المنظومات الهامة فى المجتمع الحديث والتى تتطلب جهداً متصلا :

منظومة التربية
منظومة التنمية
منظومة الاعلام
منظومة المعلومات
منظومة القرار
منظومة الأمن

- اجتماعيات التغير المتقنى

- الطاقة البشرية والتخطيط الأمثل من أجل التقدم العلمى والتكنولوجى .
- الهدر القومى فى الطاقة المهاجرة
- الهدر القومى فى الطاقة الداخلية
- التوجه والاحتشاد للهجرة أم التوجه والاحتشاد للعمل فى أرض الوطن .
- دور الفرد ودور الدولة فى تحقيق الأهداف التنموية .
- التوجيه والاحتشاد لمفاهيم إصلاحية معوقة لعمليات التقدم العلمى والتقنى .

- تعدد الأنماط الاجتماعية وعلاقته بالتقدم العلمى والتقنى .
- الهيكل التعليمي وعلاقته بالتقدم العلمى والتقنى .
- إصلاح المناهج فى النظام التعليمى .
- الاعلام العلمى والتقنى .
- المؤثرات الجمالية والنفسية والاجتماعية على أشكال التكنولوجيا .
- التغير الطبيعى والتغير القهرى فى مجالات العلوم والتكنولوجيا .
- الحضانة الحضارية فى استنبات التكنولوجيا .
- مرحلة الاستيعاب الحضارى التكنولوجى .
- مرحلة النمو الرأسى التكنولوجى .

إلى غير ذلك من المواضيع

٣ - أمثلة لنوعيات البحوث :

مثال (١) : الاقتصاد والبنوك الإسلامية :

قامت البنوك الإسلامية فى أقطار كثيرة محاولة أن تحقق الرغبة الطاغية للشعوب الإسلامية فى إقامة نظام للاقتصاد الإسلامى .

ونحن ندرك أن المسافة بين الرغبة الحضارية عند شعوبنا وبين المؤسسات البنكية التى قامت لتحقيق هذه الرغبة مازالت كبيرة للغاية ونحسب أن جهداً ضخما لابد أن يبذل من قبل أهل الفكر وأهل العلم والمتخصصين على اختلاف ألوانهم حتى تتحقق هذه الرغبة الحضارية فى مجموعة من المؤسسات الاقتصادية الإسلامية .

فما هى نوعية البحوث التى يجب أن ينشغل بها مركزنا المرجو . نذكر هنا مجموعة من القضايا :

(أ) الحدود ولجان الرقابة الشرعية :

يمكن ترجمة الحدود الشرعية فى الاقتصاد إلى مجموعة أسئلة يحتويها « استبيان شرعى » يمكن تجديده كلما جدّ اجتهاد جديد ، ولا تخضع الرقابة الشرعية حينئذ لرأى رجل واحد أو مجموعة رجال تتفاوت درجات التقوى والعلم فيصيبون أحياناً ويضلون كثيراً .

(ب) ديناميكية الحركة الاقتصادية داخل السياج الشرعى وقوانينها .

(ب ١) مفهوم التنمية الإسلامية وخصائصها .

(ب ٢) استنبات التكنولوجيا فى وجود فجوة حضارية .

(ب ٣) التوجه التقنى فى الأمة وترشيده .

(ب ٤) السلم التقنى تعليما وتدريبا وتصنيفا .

(ب ٥) إعداد « استبيان تنموى » يوضح توافق أى مشروع مع أهداف التنمية الإسلامية .

(ب ٦) القيود وتحويلها إلى صالح الاقتصاد القومى .

(ب ٧) دراسة السائد الصناعى والمشاركة فى تطويره بدلا من بدء مشاريع من الألف إلى الياء .

(ب ٨) منتجات صناعية أمام منتجات استهلاكية .

(ب ٩) بنوك المعلومات وخدمة الاقتصاد .

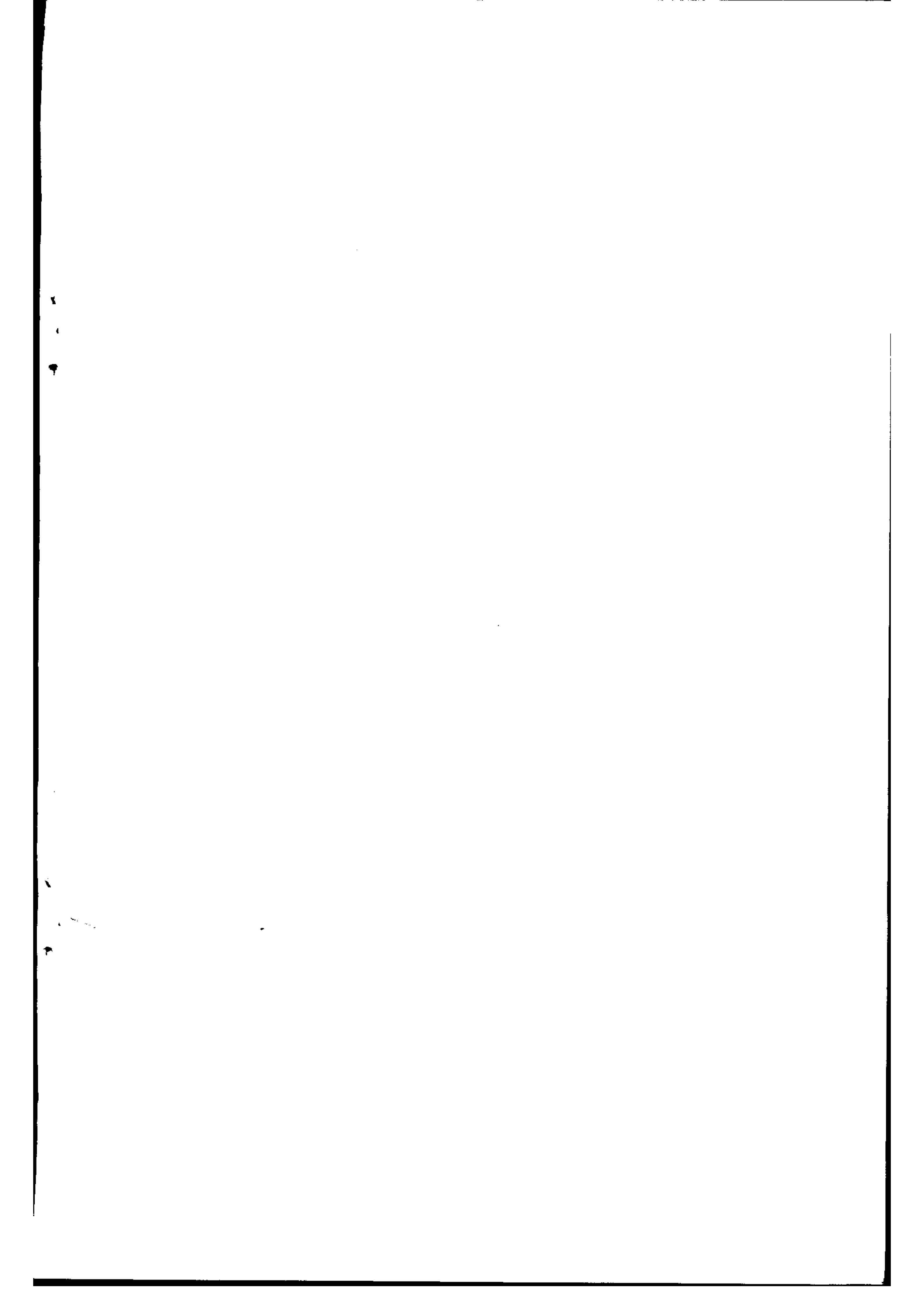
(جـ) الاقتصاديون وموقعهم فى خريطة الأعمال الاقتصادية (حيث يلاحظ سيطرتهم على هذه الخريطة وحيث يسود فهم خاطىء أن العمل الاقتصادى كله من نصيبهم ، ومن هنا تبدأ كثير من الكوارث الاقتصادية) .

(د) طبيعة البنوك فى العالم الإسلامى تجاه طبيعتها فى العالم الغربى .
(وهذه نقطة هامة لأن انطلاقة البنوك الإسلامية تكاد تكون غربية القوام بقيد واحد هو مسألة الربا وهو قيد مشكوك فى مدى تحقيقه) .

(هـ) تخطيط استراتيجية اقتصادية تشارك فيها البنوك الإسلامية بطريقة تكاملية .

(و) هل البنوك الإسلامية هى الصيغة الوحيدة لتحقيق خريطة المهام الاقتصادية أم أن هناك صيغ أخرى ؟

إلى غير ذلك من القضايا .



المراجع العربية

١ – مقدمة ابن خلدون .

٢ – قصة الضمير المصرى الحديث بين الإسلام والعروبة والتعريب .

بقلم : صلاح عبد الصبور



1- Small is beautiful: Economics as if people mattered; E. F. Schumscher.

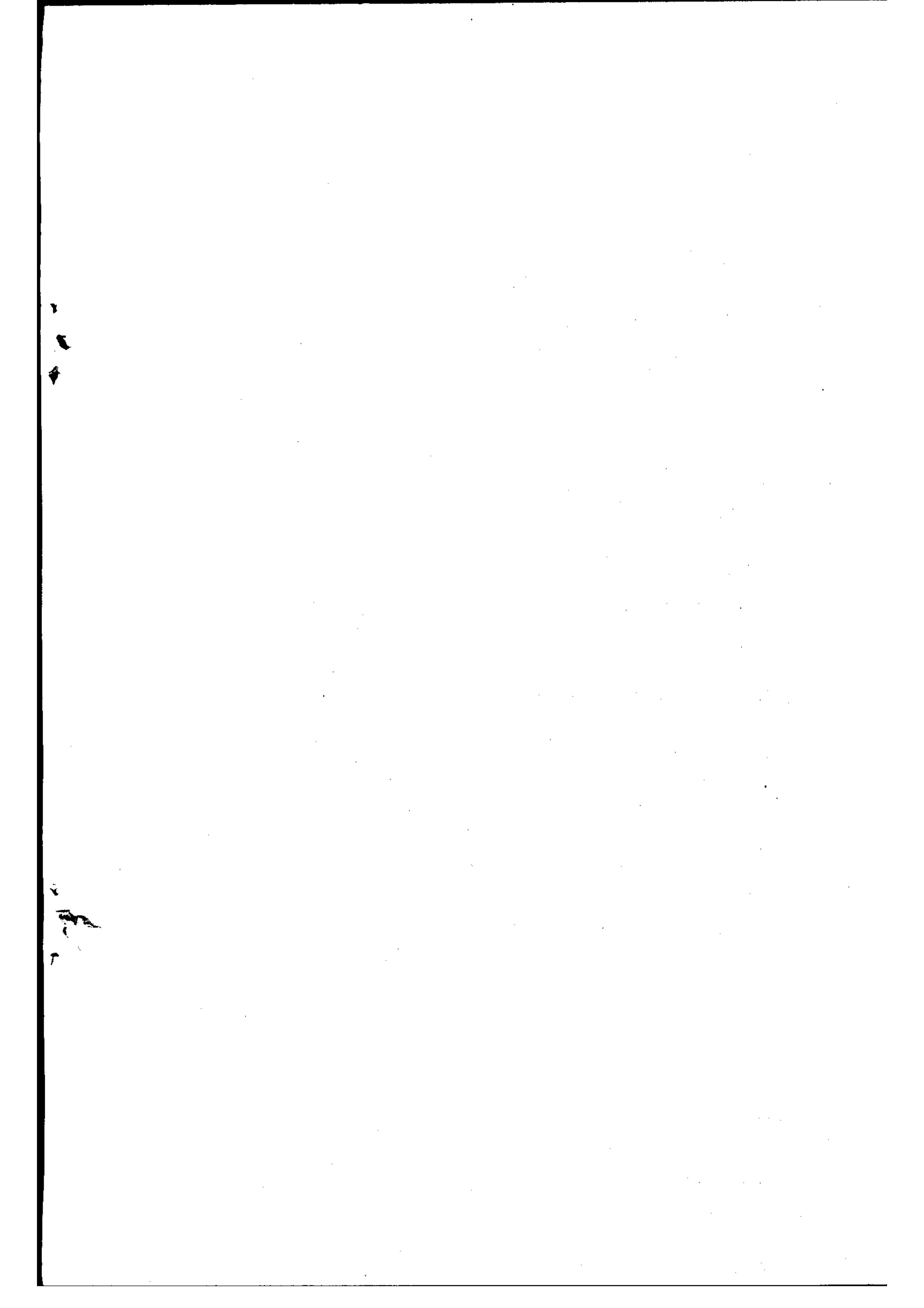
2- Entropy, Jeremy Rifkin with Ted Howard.

3- The Zero sum law; Lester C. Thurow

4- Running Wild; The next Industerial Revolution; Adam Osborne.

5- The problem of Scale in Human Life: Frame work for Analysis, Robert E. McGinn, Stanford university.

6- The History of Egypt; P. J. Vatikiotis.



الفهرس

الموضـــوع	الصفحة

